جامعـــة الأزهـــر
كليـــة الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق
الـمجلـة العلميـــة

تفسير سورة الحشر
دراسة موضوعية

إعداد

د/ نجاح محمد يوسف فتحي بنجابي
قسم المواد العامة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،
جامعة الملك عبد العزيز، جدة ، المملكة العربية السعودية

(العدد الخامس عشر)
(الإصدار الأول- يونيو)
(١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م)

علمية- محكمة- نصف سنوية

تفسير سورة الحشر دراسة موضوعية

نجاح محمد يوسف فتحي بنجابي
قسم التفسير وعلوم القرآن، تخصص الكتاب والسنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، المملكة العربية السعودية.
البريد الالكتروني:al_njah@hotmail.com

الملخص :

يهدف هذا البحث إلى تفسير سورة الحشر تفسيرًا موضوعيًا، حيث يسعى إلى إبراز معانيها الجليلة، وربط موضوعاتها الفرعية بموضوعها الرئيسي، وقد اعتمدت في هذا البحث على جمع أقوال المفسرين وبيان أبرز الهدايات الربانية ، والأحكام الشرعية المستنبطة من السورة، وقد تم تقسيم البحث إلى فصلين: الأول يتناول مدخلًا تعريفيًا بالسورة من حيث أسمائها وعدد آياتها ونوعها، أما الفصل الثاني فيعرض موضوعات السورة وتفسيرها ضمن إطار منهجي يكشف عن وحدة الموضوع وتكامل المعاني، وتأتي هذه الدراسة كمساهمة علمية مختصرة تهدف إلى تعزيز فهم هذه السورة المباركة، وفتح آفاق أوسع لدارسي التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وبيان اختتام السورة الكريمة بآيات عظيمة لتكون بمثابة خلاصة مركزة ومؤثرة لصفات الله العظيمة، مما يعمق الإيمان في قلوب المؤمنين ، ويدعوهم إلى المزيد من التقوى والخشية، بعد أن استمعوا إلى القصص والعبر التي وردت في السورة ، ثم ذكرت بعد ذلك الخاتمة ، وأهم النتائج التي توصلت إليها والتي منها وجوب اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما أمر، والابتعاد عما نهى عنه، والتعرف على أحكام الفيء ، ورفعة مكانة المهاجرين والأنصار،الموضوع الرئيس للسورة هو: إجلاء بني النضير، وما يتعلق به من أحداث وأحكام، ومن يتدبر الآيات يجد ارتباط الآيات بعضها

ببعض من أول السورة لآخرها، وقد جاءت خاتمة الآية الأخيرة في السورة مطابقة لخاتمة الآية الأولى من السورة، وهما: اسمان عظيمان (العزيز الحكيم)، مما يؤكد على أنَّ الله تعالى عالب على أمره، ولا يعجزه شيء، وأنَّه حكيم في إجلاء بني النضير، وفي توزيع الفيء، وفي إحكام الآيات العظيمة وضرب الأمثال في السورة، وقد بدأت السورة بالتسبيح بصيغة الماضي، وانتهت بالتسبيح بصيغة المضارع، للدلالة على استمرار التسبيح لله من جميع الخلائق، سبحانه وتعالى، وفيه دلالة على أهمية التسبيح. ، ثم ذكرت بعض التوصيات التي تفيد هذا النوع من البحث العلمي، منهاأن تكتب بحوث متعددة لدراسة السور الأخرى من القرآن، ويكون تفسيرها تفسيراً مقارناً يبرز مدى اهتمام المفسرين لكتاب الله تعالى.

الكلمات المفتاحية: تفسير، سورة، الحشر ، دراسة، موضوعية.

Interpretation of Surat Al-Hashr, an objective study

Najah Muhammad Yusuf Fathi Punjabi.
Department of Interpretation and Qur'anic Sciences, specializing in the Qur'an and Sunnah, College of Arts and Human Sciences, King Abdulaziz University, Jeddah, Kingdom of Saudi Arabia.
Email: al_njah@hotmail.com

Abstract:
This research aims to interpret Surat Al-Hashr in an objective manner, as it seeks to highlight its sublime meanings and link its sub-topics to its main topic.In this research, I relied on collecting the sayings of the commentators and explaining the most prominent divine guidance and legal rulings deduced from the surah.The research was divided into two chapters: The first deals with an introductory introduction to the surah in terms of its names, number of verses, and type The second chapter presents the topics of the Surah and its interpretation within a methodological framework that reveals the unity of the topic and the integration of meanings.This study comes as a brief scientific contribution aimed at enhancing understanding of this blessed Surah, opening broader horizons for students of objective interpretation of the Holy Qur'an, and explaining the conclusion of the Holy Surah with great verses to serve as a focused and influential summary.For the great attributes of God, which deepens faith in the hearts of believers and calls them to more piety and fear After they listened to the stories and lessons mentioned in the Surah, I then mentioned the conclusion, and the most important results I reached, including the necessity of following the Prophet, may God bless him and grant him peace, in everything he commanded, staying away from what he forbade, learning about the rulings on spoils, and raising the status of the Muhajireen and Ansar.The main theme of the surah is: the evacuation of Banu al-Nadir, and the events and

rulings related to it Whoever contemplates the verses will find that the verses are connected to each other from the beginning of the surah to the end.The conclusion of the last verse in the surah is identical to the conclusion of the first verse of the surah, and they are: two great names (the Mighty, the Wise), which confirms that God Almighty is above His command, and nothing is impossible for Him, and that He is Wise in evacuating Banu al-Nadir, in distributing spoils, in establishing the great verses, and in giving proverbs in the surah.The surah begins with praise in the past tense It ended with praise in the present tense, to indicate the continuation of praise to God by all creatures, Glory be to Him, and it indicates the importance of praise.Then I mentioned some recommendations that are useful for this type of scientific research, including writing multiple research papers to study other surahs of the Qur'an, and interpreting them in a comparative manner.It highlights the extent of the interest of commentators in the Book of God Almighty.

Keywords: Interpretation, Surah, Al-Hashr, objective study.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد،

فأجلُّ ما يبحث فيه المرء هو القرآن الكريم وتفسيره، وهذا بحث بعنوان: **تفسيرسورة الحشر –دراسة موضوعية.**

أهمية البحث:

١– تتضمن سورة الحشر معاني جليلة، تلامس احتياج الناس في حياتهم.

٢– على الرغم من وجود الدراسات الكثيرة التي تعلقت بالسورة من جوانبها المتعددة، إلا أني أجد الرغبة الملحة في كتابة هذا البحث عن هذه السورة الجليلة، ذات المعاني العظيمة، لأنَّ كلَّ باحث سوف يكتب بطريقة مختلفة، ويتعرض لجوانب لم يتعرَّض لها باحث آخر.

٣– توجد رسالة ماجستير بنفس عنوان البحث، وفي الحقيقة موضوع البحث يستحق أن يكون رسالة ماجستير، ولكن الهدف من بحثي أن أبرز معالم هذه السورة، وتفسيرها موضوعيا باختصار يتناسب مع النشر في المجلات العلمية الدورية.

٤– الرغبة في الانشغال بمدارسة التفسير والبحث بين الكتب والبحوث المؤلفة فيه، مما يزيدني علما وفهما وتدبراً لكتاب الله تعالى.

الدراسات السابقة:

توجد العديد من الدراسات والبحوث المتعلقة بسورة الحشر ، ومن ذلك:

١– أنواع التوحيد وثمرته في سورة الحشر – دراسة تحليلية– للباحثة/ بيان بنت عبد الرحمن الحربي، نشر: مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد (٨٢) المجلد (١٠) أكتوبر ٢٠٢٣م.

٢- سورة الحشر: دراسة موضوعية، للباحثة/ آمنة عثمان محمد، رسالة ماجستير، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإنسانية، كلية الدراسات العليا- السودان، بتاريخ ١٤٣١هـ.

٣- المناسبات في استعمال أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم: دراسة موضوعية في سورة الحشر، لأدي نيل الهدى عبد الفتاح، رسالة ماجستير، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإنسانية، كلية الدراسات العليا-السودان، بتاريخ ١٤٣٠هـ.

٤- تفسير سورة الحشر، لمحمد عزة دروزة، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، ١٤٠٢هـ

٥- معالم النصر في سورة الحشر، لعبدالحافظ عبد الرحمن، مجلة التربية الإسلامية، ٢٠١٤م-المجلد ٤١- العدد ٨.

٦- أحكام أهل الكتاب في سورة الحشر: دراسة تحليلية، لمحمد عبد الفتاح بدالرزاق سلام، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ، العدد: ٦، المجلد ٢، تاريخ النشر: ديسمبر-٢٠٢٢م.

٧- أخوة المؤمنين وأخوة المنافقين كما تصورها سورة الحشر، للباحث/ عطية السيد فياض، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، العدد ٤٨٧، تاريخ النشر/ أبريل -٢٠٠٦م.

٨- الأسماء الحسنى الواردة في سورة الحشر: دراسة عقيدية تحليلية، الباحث: غزوان صالح، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية. جامعة كركوك، المجلد ١٥، العدد ٢، تاريخ النشر: ٢٠٢٠.

٩- أسباب النصر: من سورة الحشر، للباحث: عبدالرزاق السيد عيد، مجلة جماعة أنصار السنة المحمدية، العدد ٥٤٣، تاريخ النشر ٢٠١٦م.

١٠-ألفاظ سورة الحشر بين التغير والثبوت الدلالي، الباحث/ الحمداوي عقيل جابر كاظم، مجلة التراث، المجلد ١١ العدد ٢، تاريخ النشر ٢٠٢١م.

١١-الأبنية الفريدة في سورة الحشر وعلاقتها بالوحدة الموضوعية للسورة، الباحث: سمير أحمد حسن الكساسبة، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، المجلد ٢٩، العدد٢، الجامعة الإسلامية بغزة، تاريخ النشر: ٢٠٢١.

١٢-فضائل الصحابة وحقوقهم في ضوء سورة الحشر: دراسة تحليلية، للباحث: إبراهيم سعد عبدالمجيد المتولي، مجلة كلية الشريعة والقانون بتفهنا الأشراف العدد١٨، الجزء٢، جامعة الأزهر-كلية الشريعة والقانون بتفهنا الأشراف، تاريخ النشر ٢٠١٦م.

١٣-بنو النضير من خلال سورة الحشر، للباحث: سعيد عمر سالم باقازي، رسالة ما جستير، جامعة الملك عبدالعزيز، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، بتاريخ ١٩٧٩م.

وهناك غيرها من الدراسات التي لا يتسع المقام لذكرها، وهذا يدل على أهمية هذه السورة، ومدى اهتمام الباحثين فيها، مما جعلني أكون ممن ساهم في دراستها والبحث في مضامنها وأنهل من معينها.

خطة البحث:

وقد قسمت البحث إلى مقدمة، وفصلين وخاتمة والمراجع العلمية، وفيما يأتي تفصيل هذه الخطة:

المقدمة: وتشمل سبب اختيار الموضوع وأهميته، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهجي في كتابته.

الفصل الأول: المدخل لدراسة السورة. وفيه مبحثان، وهما:

المبحث الأول: أسماء السورة، ووجه التسمية بها، وعدد آياتها ونزولها.

المبحث الثاني: سبب نزول السورة، ومناسبتها لما قبلها، وموضوعها الرئيسي.

الفصل الثاني: موضوعات سورة الحشر الفرعية، وارتباطها بالموضوع الرئيسي.
ويشمل ثلاثة عشر مبحثاً، **وهي:**

المبحث الأول: افتتاح السورة بالتسبيح، الآية رقم (١)

المبحث الثاني: بيان قصة بني النضير، وحشرهم إلى خارج ديارهم الآية (٢)

المبحث الثالث: حكمة الله تعالى في جلاء بني النضير، وسبب عذابهم في الدنيا والآخرة. الآيات (٣-٤)

المبحث الرابع: بيان ما حصل من قطع الصحابة ﷺ لنخيل بني النضير، الآية (٥)

المبحث الخامس: بيان أحكام الفيء: الآيات: (٦-٧).

المبحث السادس: الثناء على المهاجرين والأنصار والذين جاؤوا من بعدهم، الآيات (٨-١٠):

المبحث السابع: بيان حال المنافقين مع بني النضير، الآيتان (١١-١٢).

المبحث الثامن: بيان حال المنافقين ويهود بني النضير، عند قتال المؤمنين، الآيات (١٣-١٤).

المبحث التاسع: ضرب المثل في مصير المنافقين وبني النضير بمن قبلهم، الآية (١٥).

المبحث العاشر: ضرب المثل في موقف المنافقين مع بني النضير، بموقف الشيطان مع الكافر، وبيان مصيرهم، الآيات (١٦-١٧).

المبحث الحادي عشر: الأمر بتقوى الله تعالى والنهي عن الإعراض عن الدين وعاقبة الفريقين الآيات (١٨-٢٠)

المبحث الثاني عشر: بيان عظمة القرآن، والحث على تدبره، والغاية من ضرب الأمثال في القرآن، الآية (٢١)

المبحث الثالث عشر: دلالات أسماء الله الحسنى وصفاته العليا التي ختمت به السورة، الآيات (٢٢-٢٤)

الخاتمة: وأذكر فيها أهم نتائج البحث، وتشمل أبرز الهدايات الربانية التي تشملها السورة.

فهرس المراجع والمصادر.

منهجي في البحث: اتبعت في هذا البحث:

١. المنهج الاستقرائي حيث جمعت أبرز أقوال المفسرين في تفسير السورة، وأخترت منها ما يتناسب مع البحث.
٢. المنهج الوصفي حيث ذكرت في الفصل الأول مدخلا للسورة، وبيَّنت موضوع السورة الرئيس.
٣. المنهج التحليلي حيث قسمت آيات السورة إلى موضوعات فرعية، وقمت بتفسيرها، وبيان ارتباطها بالموضوع الرئيس، ووضحت أبرز الهدايات الربانية والأحكام الشرعية المستنبطة من السورة.

وأسأل الله تعالى أن يتقبل مني دراسة هذه السورة وتعلمها، ويوفقني للعمل بما جاء فيها، ويجعل هذه الدراسة منطلقاً لدراسة كل سور القرآن.

الفصل الأول: المدخل لدراسة السورة.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أسماء السورة، ووجه التسمية بها، وعدد آياتها ونزولها.

وفيه ثلاثة مطالب، وهي:

المطلب الأول: أسماء السورة ووجه التسمية:

ورد لها اسمان هما:

١- سورة الحشر:

سُمّيت هذه السورة بـ (سورة الحشر).

وبهذا الاسم دعاها النبي ﷺ كما جاء في الحديث عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رضي الله عنه [(١)]، عن النبي ﷺ قال: (مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ، وَكَّلَ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ قَالَهَا مَسَاءً فَمِثْلُ ذَلِكَ حَتَّى يُصْبِحَ)[(٢)].

---

(١) معقل بن يسار بن عبد الله بن معبر بن حراق. ويكنى أبا عبد الله. صحب رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشهد بيعة الرضوان وَإِلَيْهِ ينسب نهر معقل الَّذِي بالبصرة، أمره عمر بن الخطاب بحفره فحفره، وكان قد تحول إلى البصرة، فنزلها وبنى بها دارًا. وتوفي بها فِي آخِرِ خِلافَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ في ولاية عبيد الله بن زياد. الطبقات الكبرى ط العلمية (٧/ ١٠) ، أسد الغابة ط الفكر (٤/ ٤٥٧).

(٢) رواه الدارمي في سننه، كتاب: فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَابُ: فِي فَضْلِ حم الدُّخَانِ وَالْحَوَامِيمِ وَالْمُسَبِّحَاتِ (٤/٢١٥٤)، (ح ٣٤٦٨)، قال الشيخ حسين سليم أسد: إسناده حسن.

وجه التسمية:

لوقوع لفظ: "الحشر" فيها، حيث ورد فيها حادثة حشر بني النضير[١] من ديارهم، أي: من قريتهم المسماة: الزهرة، وهي قرية قريبة من المدينة.

فخرجوا إلى بلاد الشام، إلى أريحا[٢]، وأذرعات[٣]، وبعض بيوتهم خرجوا إلى خيبر[٤].

وبعضهم خرجوا إلى الحِيرة[٥].

---

(١) بنو النضير: هي قبيلة يهودية، كانت تسكن جنوب المدينة المنورة (يثرب)، حتى أجلاهم الرسول ﷺ في السنة الرابعة من الهجرة. وقال الحموي: "النضير: بفتح النون، وكسر الضاد ثم ياء ساكنة، وراء مهملة: اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة وكانوا هم وقريظة نزولا بظاهر المدينة في حدائق وآطام لهم"، ينظر: معجم البلدان، باب النون والضاد وما يليهما (٥/٢٩٠).

(٢) أريحا: هي مدينة فلسطينية تاريخية قديمة تقع في الضفة الغربية بالقرب من نهر الأردن وعند شمال البحر الميت. قال ياقوت الحموي: "وهي مدينة الجبّارين في الغور من أرض الأردنّ بالشام، بينها وبين بيت المقدس يوم للفارس في جبال صعبة المسلك". ينظر: معجم البلدان، باب الهمزة والراء وما يليهما، (١/١٦٥).

(٣) أَذْرِعَات: اسم بلد في أطراف الشام، يجاور أرض البلقاء وعمّان. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، باب الهمزة والذال وما يليهما، (١/١٣٠).

(٤) خيبر: تقع شمال المدينة المنورة، وتبعد عنها ١٥٣كلم. وهي ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام، يطلق هذا الاسم على الولاية وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير، وكان يسكنها اليهود، وقد فتحها النبي ﷺ في سنة سبع للهجرة، ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، باب: الخاء والواو وما يليهما، (٢/٤٠٩).

(٥) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣/ ٦٣)

٢- سُورَةُ النَّضِيرِ:

فقد جاء في الأثر عن سعيد بن جبير[١]، قال: (قُلتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْهمَا: سُورَةُ الحَشْرِ، قالَ: قُلْ: سُورَةُ النَّضِيرِ)[٢].

وجه التسمية:

سميت بهذا الاسم لورود قصة حشر بني النضير فيها[٣].

مسألة: حكم تسميتها بالاسمين:

عقَّب ابن حجر رحمه الله على الأثر الوارد عن سعيد بن جبير رحمه الله أنَّ ابن عباس ﷺ كره تسميتها بـ (الحشر)، فقال: "كأنه كره تسميتها بالحشر لئلا يظن أن المراد: يوم القيامة، وإنما المراد به هنا: إخراج بني النضير"[٤].

وتعقبه ابن عاشور رحمه الله فقال: "وتأوَّل ابن حجر كلام ابن عباسﷺ على أنه كره تسميتها بـ (الحشر) لئلا يُظن أن المراد بالحشر يوم القيامة، وهذا تأول بعيد.

---

(١) سعيد بن جبير، تابعي، ثقة، إمام، حجة على المسلمين، ويكنى أبا عبد الله مولى لبني والبة بن الحارث من بني أسد بن خزيمة، وكان سعيد بن جبير فيمن خرج من القراء على الحجاج بن يوسف وشهد دير الجماجم، فأمر الحجاج بقتله، فقتل رحمه الله سنة (٩٤هـ)، وكان عمره (٤٩سنة)، وقد روي أن الحجاج مات بعده بستة أشهر، الطبقات الكبرى، لابن سعد، (٦/ ٢٥٦-٢٦٦). وتهذيب الكمال في أسماء الرجال (١٠/ ٣٥٨-٣٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: تفسير سورة الحشر، رقم (٤٨٨٢) و(٤٨٨٣)، ومسلم في كتاب: التفسير، باب: في سورة براءة والأنفال والحشر، ح (٣٠٣١). واللفظ للبخاري.

(٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤٥٩/١٥)

(٤) فتح الباري (٤٩٧/٨)، وانظر: الإتقان في علوم القرآن (١٧٤/١)، والمحرر الوجيز لابن عطية (٤٥٩/١٥).

وأحسن من هذا أن ابن عباسﷺ أراد أن لها اسمين، وأنَّ الأمر في قوله: قل، للتخيير"[١].

نخرج من ذلك صحة تسميتها بسورة الحشر، وكذلك بسورة بني النضير، أو سورة: النضير، ولا كراهة في ذلك، والله أعلم.

المطلب الثاني: عدد آيات السورة:

أربع وعشرون آية اتفق العلماء على ذلك، ولا نظير لها في عددها [٢] .

المطلب الثالث: زمان نزول السورة:

سورة الحشر سورة مدنية في قول الجميع [٣] .

المبحث الثاني: سبب نزول السورة، ومناسبتها لما قبلها، وموضوعها الرئيسي.

وفيه أربعة مطالب، وهي:

المطلب الأول: سبب نزول السورة:

نزلت في بني النضير، حيث إنهم صالحوا رسول الله ﷺ على أن لا يكونوا عليه، ولا له، فلما ظهر يوم بدر قالوا: هو النبي الذي نعته في التوراة، لا ترد له راية، فلما هُزم المسلمون يوم أُحد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف[٤]، في

---

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣/ ٦٢)

(٢) البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو عثمان بن سعيد الأموي الداني، دار النشر: مركز المخطوطات والتراث – الكويت – ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: غانم قدوري الحمد (٢٤٣/١)، وروح المعاني للألوسي (٢٣٢/١٤)

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١/١٨)، والبيان في عد آي القرآن لأبي عمر الداني (٢٤٣/١)، وروح المعاني للألوسي (٢٣٢/١٤).

(٤) كعب بن الأشرف، شاعر من بني النضير وقيل كان أبوه من طيء وأمه من يهود بني النضير، كان يقول الشعر في التحريض على قتال الرسول ﷺ. وشبب بنساء المسلمين =

أربعين راكباً إلى مكة، فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة، فأخبر جبريل الرسول ﷺ بذلك، فأمر بقتل كعب، فقتله محمد بن مسلمة غيلة[١]، وكان أخاه من الرضاعة، وكان النبي ﷺ قد اطلع منهم على خيانة حين أتاهم في دية المسلمين، الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري منصرفه من بئر معونة[٢]، فهموا بطرح الحجر على رسول الله ﷺ فعصمه الله تعالى.

فلما قُتل كعب أمر النبي ﷺ بالمسير إلى بني النضير، وكانوا بقرية يقال لها الزهرة، فساروا وهو عليه الصلاة والسلام على حمار مخطوم بليف، فوجدهم

=

حتى آذاهم ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٤٦، ٣١٨-٣٢٥).

(١) (الغيلة) الاغتيال يُقَال قَتله غيلَة على غَفلَة مِنْهُ، المعجم الوسيط، باب: الغين، (٢/ ٦٦٧)

(٢) وقعت حادثة سرية بئر معونة، في شهر صفر، من السنة الرابعة للهجرة، حيث جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: أَنِ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالاً يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِيئُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِى الْمَسْجِدِ وَيَحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لأَهْلِ الصُّفَّةِ وَلِلْفُقَرَاءِ فَبَعَثَهُمُ النَّبِىُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، حَتَّى كَانُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قَتَلُوهُمْ وَغَدَرُوا بِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ، وكان فيهم : عمرو بن أمية الضمري ﷺ، وَأُخِذَ عَمْرٌو أَسِيرًا، فَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مِنْ مُضَرَ أُطْلَقَهُ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَجَزَّ نَاصِيَتَهُ وَأَعْتَقَهُ عَنْ رَقَبَةٍ كَانَتْ عَلَى أُمِّهِ فِيمَا زَعَمَ!

وَخَرَجَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْقَرْقَرَةِ مِنْ صَدْرِ قَنَاةَ، أَقْبَلَ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، حَتَّى نَزَلَا فِي ظِلٍّ هُوَ فِيهِ، وَكَانَ مَعَ الْعَامِرِيَّيْنِ عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجِوَارٌ لَمْ يَعْلَمْهُ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ، وَقَدْ سَأَلَهُمَا حِينَ نَزَلَا: مِمَّنْ أَنْتُمَا؟ قَالَا: مِنْ بَنِي عَامِرٍ.

فَأَمْهَلَهُمَا حَتَّى إِذَا نَامَا، عَدَا عَلَيْهِمَا وَقَتَلَهُمَا، وَهُوَ يَرَى أَنْ قَدْ أَصَابَ بِهِمَا ثَأْرًا مِنْ بَنِي عَامِرٍ فِيمَا أَصَابُوا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَلَمَّا قَدِمَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺأَخْبَرَهُ بِالْخَبَرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : " لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لَأَدِيَنَّهُمَا " ينظر: السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٣٩-١٤٣).

ينوحون على كعب، وقالوا: ذرنا نبكي شجونا ثم مر أمرك، فقال: اخرجوا من المدينة. فقالوا: الموت أقرب لنا من ذلك، وتنادوا بالحرب، وقيل استمهلوه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج، ودس المنافق عبد الله بن أبيّ وأصحابه: أن لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم، ولننصرنكم، وإن أخرجتم لنخرجن معكم. فدرّبوا على الأزفة وحصنوها ثم أجمعوا على الغدر برسول الله ﷺ فقالوا: اخرج في ثلاثين من أصحابك، ويخرج منا ثلاثون ليسمعوا منك فإن صدقوا آمنا كلنا، ففعل، فقالوا :كيف نفهم ونحن ستون؟ اخرج في ثلاثة ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، ففعلوا، فاشتملوا على الخناجر، وأرادوا الفتك، فأرسلت امرأة منهم ناصحة إلى أخيها، وكان مسلماً فأخبرته بما أرادوا، فأسرع إلى الرسولﷺ فسارّه بخبرهم قبل أن يصل الرسول إليهم.

فلما كان من الغد غدا عليهم بالكتائب، فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين، فطلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء، على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من المتاع، فجلوا إلى الشام، إلى أريحاء وأذرعات، إلا أهل بيتين منهم: آل أبي الحقيق وآل حيي بن أحطب، فلحقوا بخيبر، ولحقت طائفة بالحيرة، وقبض أموالهم وسلاحهم، فوجد خمسين درعاً وخمسين بيضة[1] وثلاثمائة وأربعين سيفاً، وكان ابن أبيّ قد قال لهم: معي ألفان من قومي، وغيرهم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان، فلما نازلهم رسول الله ﷺ اعتزلتهم قريظة وخذلهم ابن أبيّ وحلفاؤهم من غطفان [2] .

---

(١) هي الخوذة. وفي غريب الحديث لابن الجوزي – (١ / ١٧٣): بيضة الحديد: التي تَجْمَعُ شَعْرَ الرأسِ.

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي (٢٣٢/١٤)، وتفسير البحر المحيط (٢٤١/٨) وكانت قصتهم في ربيع الأول سنة أربع من الهجرة، ينظر لمزيد من تفاصيل قصة جلاء بني =

المطلب الثاني: مناسبة السورة لما قبلها [١]:

١- ذكر الله تعالى حال المنافقين واليهود وتولي بعضهم بعضاً، في سورة المجادلة، ثم في سورة الحشر ذكر ما حلَّ باليهود من غضب الله عليهم وجلائهم، وإمكان الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام ممن حاد الله ورسوله ورام الغدر بالرسول عليه الصلاة والسلام وأظهر العداوة بحلفهم مع قريش.

٢- في آخر سورة المجادلة يقول الله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة:٢٢] وقد نزلت فيمن قتل أقرباؤه من الصحابة يوم بدر، وأول الحشر نزلت في ذكر غزوة بني النضير، وهي عقب غزوة بدر، وذلك نوع من المناسبة والربط.

٣- وفي الآية قبل الأخيرة من سورة المجادلة يقول الله تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة:٢١].

وفي ثاني آية من سورة الحشر يقول الله تعالى: ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الحشر:٢].

=

النضير في سيرة ابن هشام (١٤٣/٤-١٥٦).

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (٢٤١/٨)، وأسرار ترتيب القرآن، تأليف: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل، دار النشر: دار الاعتصام – القاهرة، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا(١٣٦/١-١٣٧)، وروح المعاني للألوسي (٢٣٢/١٤)، وتفسير البحر المحيط (٢٤١/٨).

٤- وفي آخر سورة المجادلة ذكر من حاد الله ورسوله، يقول الله تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة:٢٠]. وفي أول سورة الحشر ذكر من شاق الله ورسوله، حيث يقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٤]

المطلب الثالث: موضوع السورة الرئيسي:

موضوع السورة الرئيسي هو: حشر يهود بني النضير، وما يتعلق به من أحداث وأحكام ومواعظ وعبر.

المطلب الرابع: أبرز الموضوعات التي تحدثت عنها السورة:

١- افتتاح السورة بالتسبيح.

٢- بيان قصة بني النضير، وحشرهم إلى خارج ديارهم.

٣- حكمة الله تعالى في جلاء بني النضير.

٤- حكم تحريق دار العدو وتخريبها وقطع ثمارها.

٥-بيان أحكام الفيء.

٦- الأمر باتباع النبي وطاعته في كل ما يأمر وينهى.

٧- الثناء على المهاجرين، والأنصار، وعلى المؤمنين الذين جاؤوا من بعد المهاجرين والأنصار.

٨- بيان حال المنافقين مع بني النضير.

٩- رهبة المنافقين ويهود بني النضير من المؤمنين أشد من رهبتهم من الله تعالى.

١٠- ضرب المثل في مصير المنافقين وبني النضير بمن قبلهم.

١١- ضرب المثل في موقف المنافقين مع بني النضير بموقف الشيطان مع الكافر.

١٢- الأمر بتقوى الله تعالى والنهي عن الإعراض عن الدين وعاقبة الفريقين.

١٣- بيان عظمة القرآن، والغاية من ضرب الأمثال في القرآن.

١٤- دلالات أسماء الله الحسنى وصفاته العليا التي ختمت به السورة.

الفصل الثاني: موضوعات سورة الحشر الفرعية، وارتباطها بالموضوع الرئيسي.

ويشمل أربعة عشر مبحثاً وهي:

المبحث الأول: افتتاح السورة بالتسبيح، الآية رقم (١)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحشر: ١] .

المطلب الأول: افتتاح السورة بالثناء على الله عزَّ وجلَّ: وفيه أربع مسائل:

المسألة الأولى: في بيان نوع الافتتاح في السورة:

افتتح سبحانه وتعالى كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام، لا يخرج شيء من السور عنها [١].

وأحد هذه الأنواع العشرة: **افتتاح السورة بالثناء عليه عز وجل، والثناء قسمان:**

القسم الأول: إثبات لصفات المدح:

ويتمثل في لفظين هما:

اللفظ الأول: (الحمد لله) وذلك في خمس سور، وهي:

- الفاتحة: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢].
- الأنعام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١].
- الكهف: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١﴾ [الكهف: ١].

---

(١) انظر تفصيل ذلك في البرهان في علوم القرآن، للزركشي، (١/١٦٤-١٨٠)، وسأذكرها باختصار للفائدة، وهي:

١- الثناء، ٢- حروف التهجي، ٣- النداء، ٤- الجمل الخبرية، ٥- القسم، ٦- الشرط، ٧- الأمر، ٨- الاستفهام، ٩- الدعاء، ١٠- التعليل

- سبأ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [سبأ: ١].
- فاطر: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ [فاطر: ١].

اللفظ الثاني: (تبارك) وذلك في سورتين هما:

- الفرقان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان: ١].
- الملك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [الملك: ١].

القسم الثاني: النفى والتنزيه من صفات النقص:

وقد جاء التنزيه بأربعة ألفاظ وهي:

اللفظ الأول: المصدر وذلك في سورة الإسراء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١].

اللفظ الثاني: الماضي، وذلك في ثلاث سور وهي:

- الحديد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ [الحديد: ١].
- الحشر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ [الحشر: ١].
- الصف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ **اللفظ الثالث:** المضارع، وذلك في سورتين هما:
- الجمعة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة: ١].
- التغابن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [التغابن: ١].

اللفظ الرابع: الأمر المخاطب: وذلك في سورة الأعلى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ﴾[الأعلى: ١].

لطائف:

- لو تأملنا التقسيمات السابقة نلاحظ أن الافتتاح بالثناء جاء في أربع عشرة سورة، النصف منها في الإثبات، والنصف الثاني في التنزيه، وقد علق الزركشي على ذلك فقال:

" كلاهما [١] في سبع سور، فهذه أربع عشرة سورة استفتحت بالثناء على الله، لثبوت صفات الكمال، ونصفها لسلب النقائص، وهو سر عظيم من أسرار الألوهية" [٢].

- مما سبق تبين لنا أن لفظ التسبيح جاء بالألفاظ الدالة على الأزمنة الثلاثة التي يأتي عليها الفعل: (الماضي، والمضارع، والأمر)، بالإضافة إلى ذلك جاء بلفظ المصدر.

ليدل ذلك كله بدوام واستمرار التسبيح لله تعالى من جميع خلقه، كما سبح سبحانه نفسه، وسبحته ملائكته ورسله، على ما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه.

- "قال الكرماني في متشابه القرآن: التسبيح كلمة استأثر الله بها، فبدأ بالمصدر في بنى إسرائيل لأنه الأصل، ثم بالماضي في الحديد والحشر والصف لأنه أسبق الزمانين، ثم بالمضارع في الجمعة والتغابن، ثم بالأمر في الأعلى، استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها"[٣].

المسألة الثانية: معنى سبَّح:

---

(١) الضمير يعود إلى النوعين: إثبات صفات المدح، والتنزيه عن النقص، والله أعلم.

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/١٦٥).

(٣) الإتقان للسيوطي (٢/٩٦٧)، وانظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١/١٦٥) .

فـي اللغـة: سبَّح يسبِّح تسبيحاً، أي قال: سبحان الله، والتسبيح التقديس والتنزيه، والإبعاد عن السوء يقال: سبَّحت الله أي: نزَّهته عما يقول الجاحدون، ويأتي بمعنى الذكر والصلاة، ويأتي أيضاً بمعنى التعجب.

وأصل التسبيح: من مادة سَبَحَ، والسباحة والتسبيح مشتركان في أصل المادة، فبينهما اشتراك في أصل المعنى، والسباحة في الماء ينجو بها صاحبها من الغرق، وكذلك المسبح لله والمنزه له ينجو من الشرك، ويحيا بالذكر والتمجيد لله تعالى[1].

والتسبيح شرعاً: تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله[2].

المسألة الثالثة: ألفاظ التسبيح الواردة في السورة ومناسبتها لموضوع السورة:

جاء الفعل في أول هذه السورة الكريمة بصيغة الماضي **﴿سبَّح لله﴾**، كما جاء في أول سورة الحديد قبلها، وأول سورة الصف بعدها.

وفيه دلالة على أن تنزيه الله تعالى أمر مقرر أمَرَ الله به عباده من قبل، وألهمه الناس، وأودع دلائله في أحوال ما لا اختيار له[3]، وفيه تعريض بالمشركين الذين أهملوا تسبيح الله عن الشريك والند.

واللام في (لله): لام تبيين، وفائدتها: زيادة بيان ارتباط المعمول بعامله، لأنَّ فعل التسبيح متعدٍّ بنفسه لا يحتاج إلى التعدية بحرف [4].

---

(١) انظر: مادة (سبح)، المفردات للراغب ص (٣٩٢)، المصباح المنير للفيومي ص (٢٦٢)، والقاموس المحيط للفيروز أبادي ص (٢٨٤)، والمعجم الوسيط، ص (٤١٢) .

(٢) انظر: الكليات للكفوي ص (٢٩٧)، وأضواء البيان، للشنقيطي (١٢/٨).

(٣) هذا قول ابن عاشور وفيه نظر، لأنه يؤيد الرأي الثاني الذي سيأتي بيانه حول حقيقة التسبيح الوارد في الآية، وهو رأي مرجوح والله أعلم.

(٤) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٥٧/١٣)

كما جاء لفظ التسبيح بصيغة المضارع في آخر السورة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٤] ليدل على استمرار التسبيح.

المسألة الرابعة: مناسبة أول آية وآخرها بموضوع السورة:

من خلال التأمل في الآيات تظهر لنا مناسبة عظيمة، تدل على عظمة هذا القرآن العظيم وتناسب نظمه، وهي تنزيه الله ابتداءً قبل ورود القصة من كل صفات النقص التي قد ترد على ذهن بعض الناس، وتأكيد لهذا التنزيه بعد نهاية القصة، وكذلك إثبات صفات المدح والثناء التي تناسب هذه القصة، وفيما يلي أمثلة لذلك:

١- تنزيه الله تعالى عن صفة الظلم، كأن يقول قائل لماذا أجلى الله بني النضير، هذا ظلم لهم، أو يقول قائل: لماذا جعل الله تعالى ما أحرزه المؤمنون في غزوة بني النضير لله وللرسول، ولم يخمسها كالغنيمة، فالرد عليهم يتأكد بالتسبيح وتنزيه الله تعالى، وبتأكيد صفة الله تعالى بأنه(الحكيم).

٢- تنزيه الله تعالى من صفة الضعف أو عدم الغلبة، ذلك لأنه قد يقول قائل: لماذا لم يأمر الله رسوله والمؤمنين بقتالهم، والرد عليهم يتأكد بإثبات صفة (العزيز).

والله تعالى أعلم

المطلب الثاني: دلالة قول الله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾:

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: عموم لفظ (ما) في الآية، وشموله للعاقل وغير العاقل.

لفظ (ما) من صيغ العموم، وأصل استعمالها لغير العقلاء، ومجيؤها هنا لغير العاقل تغليباً له، لكثرته كما تقدم، فتكون شاملة للعاقل من باب أولى.

والتسبيح في القرآن الذي في معرض العموم كله مسند إلى (ما) دون (من) إلا في موضع واحد هو: قول الله تعالى:

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وهذا شاهد على شمول (ما) وعمومها، لأنه سبحانه أسند التسبيح أولاً إلى السماوات السبع والأرض صراحة بذواتهن، وهن من غير العقلاء بما في كل منهن من أفلاك وكواكب وبروج أو جبال ووهاد وفجاج، ثم عطف على غير العقلاء بصيغة من الخاصة بالعقلاء، فقال: (وَمَن فِيهِنَّ) وإن كانت(من) قد تستعمل لغير العقلاء إذا نزلن منزلة العقلاء.

وبهذا شمل إسناد التسبيح لكل شيء في نطاق السماوات والأرض، عاقل وغير عاقل.

وقد أكد هذا الشمول بصريح قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكلمة (شيء) أعمُّ العمومات، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الرعد:١٦]، و [الزمر:٦٢]، فشملت السماوات والأرض والملائكة والإنس والجن والطير والحيوان والنبات والشجر والمدر وكل مخلوق لله تعالى.

وقد جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة إثبات التسبيح من كل ذلك كل على حدة:

أولاً: تسبيح الله تعالى نفسه: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا ﴾[الإسراء: ١]،

وقال تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: ١٧]، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ثانياً: تسبيح الملائكة: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾

[البقرة: ٣٠]. وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ثالثاً: تسبيح الرعد: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣].

رابعاً: تسبيح السماوات السبع والأرض: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

خامساً: تسبيح الجبال: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص: ١٨].

سادساً: تسبيح الطير: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

سابعاً: تسبيح الإنسان: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الحجر: ٩٨]. وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٤] و[الواقعة: ٩٦] و [الحاقة: ٥٢ وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾ [مريم: ١١].

فهذا إسناد التسبيح صراحة لكل هذه العوالم مفصلة ومبينة واضحة.

المسألة الثانية: الخلاف في بقاء العموم الوارد في الآية:

اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في عموم (ما) في هذه الآية الكريمة، وذلك إلى أربعة أقوال هي:

الرأي الأول: أن العموم باقٍ على عمومه، وإن لفظ التسبيح محمول على حقيقته في التنزيه والتحميد، من كل المخلوقات سواء الحية أو الجامدة.

الرأي الثاني: أن العموم باقٍ على عمومه، لم يدخله خصوص، ولكن التسبيح يختلف، ولكل تسبيح بحسبه، فمن العقلاء بالذكر والتحميد والتمجيد،

كالإنسان والملائكة والجن، ومن غير العاقل سواء الحيوان والطير والنبات والجماد، فيكون بالدلالة، بأن يشهد على نفسه ويدل على أنَّ الله تعالى خالق قادر.

الرأي الثالث: أن العام في الآية قد دخله التخصيص، فالذي يسبح هو ما كان فيه حياة أي روح، أما الجمادات فلا.

وعلى هذا القول: الشجرة تسبح، والكرسي المصنوع من الشجرة لا يسبح.

٤- أن العام في الآية قد دخله التخصيص، فالذي يسبح هو كل شيءٍ لم يُغَيَّر عن حالِه، فإذا تغير انقطع تسبيحه [١].

وقد رُوي هذا القول عن المقدام بن معد يكرب[٢]، قال: إن التراب يسبح ما لم يبتل، فإذا ابتل ترك التسبيح، وإن الخرزة لتسبح ما لم تُرفع من موضعها، فإذا رفعت تركت التسبيح، وإن الورقة لتسبح ما دامت على الشجرة فإذا سقطت تركت التسبيح، وإن الثوب ليسبح ما دام جديداً فإذا وسخ ترك التسبيح، وإن الماء يسبح ما دام جارياً، فإذا ركد ترك التسبيح، وإن الوحش والطير تسبح إذا صاحت، فإذا سكنت تركت التسبيح [٣].

الرأي الراجح:

هو الرأي الأول، وهو أن لفظ العموم باقٍ على عمومه، ولا دليل يصرفه عن عمومه، أما الحديث الوارد في الجريد الأخضر، فلا يوجد فيه دلالة على

---

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي ص (٧٤٤)، وزاد المسير ، لابن الجوزي (٢٩/٥).

(٢) الْمِقْدَامُ بْنُ مَعْدِ يكَرِبَ الْكِنْدِيُّ وَيُكْنَى أَبَا يَحْيَى، وهو أحد الوفد الَّذِينَ وفدوا عَلَى رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كنده، توفي بالشام سنة سبع وثمانين، في خلافة عبد الملك بن مروان، وهو ابن إحدى وتسعين سنة، الطبقات الكبرى لابن سعد، ط دار صادر (٧/ ٤١٥)، أسد الغابة لابن الأثير ط الفكر (٤/ ٤٧٨).

(٣) انظر: معالم التنزيل للبغوي ص (٧٤٤).

المعنى الذي أوردوه، فلعل السبب أمر آخر غير انقطاع التسبيح، والله تعالى أعلم، وأما الآراء الأخرى الواردة في التخصيص فلا يوجد لها أدلة فيما اطلعت عليه من كتب التفاسير، مع وجود الأدلة التي تقوي الرأي الأول، والتي سيأتي ذكرها في المسألة التالية، والله تعالى أعلم.

المسألة الثالثة: الخلاف على حقيقة التسبيح الوارد في الآية:

وهي مسألة مترتبة على المسألة السابقة، حيث نجد أن اختلاف العلماء في بقاء العام على عمومه، أو أن التخصيص قد دخله، أنتج ثلاثة آراء في حقيقة التسبيح المذكور في الآية، وفيما يأتي أورد هذه الآراء، ثم الرأي الراجح في المسألة:

الرأي الأول: أن لفظ التسبيح محمول على حقيقته في التنزيه والتحميد، من جميع المخلوقات الأحياء منهم والجمادات، التي تغير حاله أو لم يتغير، فكل شيء على العموم يسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه(١).

قال مجاهد: كل الأشياء تسبح لله، حياً كان أو ميتاً أو جماداً، وتسبيحها: سبحان الله وبحمده(٢).

وقال إبراهيم النخعي: وإن من شيءٍ جمادٍ وحيٍ إلا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السيف (٣).

الدليل:

١- صريح قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

(١) تفسير القرطبي (٢٦٦/١٠).

(٢) معالم التنزيل للبغوي ص (٧٤٤).

(٣) معالم التنزيل للبغوي ص (٧٤٤).

أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله، ولكن لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات.

فلو كان المقصود بالتسبيح الدلالة، لكان أمراً مفهوماً، والآية تنطق بأنَّ هذا التسبيح لا يُفقه.

ولا حجة في قولهم إنَّ المراد بـ (لا تفقهون) الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى في الأشياء، والله أعلم.

٢- ورد في الصحيح أنَّ الصحابة سمعوا تسبيح الطعام، وهو من الجمادات، وذلك فيما رواه عبد الله بن مسعود قال: (كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقلَّ الماء، فقال: اطلبوا فضلة من ماء، فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: حي على الطهور المبارك، والبركة من الله، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل)[1].

وفي حديث أبي ذر: (أن النبي ﷺ قبض على حصيات سبع أو تسع أو قريب من ذلك، فسبحن في يده حتى سمع لهن حنين كحنين النحل في كف رسول الله ﷺ، ثم أخذهن منه فوضعهن في الأرض فخرسن، ثم ناولهن أبا بكر رضي الله عنه فسبحن في كفه، كما سبحن في كف رسول الله ﷺ، ثم أخذهن منه فوضعهن في الأرض فخرسن، ثم ناولهن عمر رضي الله عنه فسبحن في كفه كما سبحن في كف أبي بكر رضي الله عنه، ثم أخذهن منه فوضعهن في الأرض فخرسن، ثم ناولهن

(١) رواه البخاري، في كتاب: بدء الوحي، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث(٣٥٧٩).

عثمانﷺ فسبحن في كفه كما سبحن في كف عمرﷺ رضي الله عنهم، ثم أخذهن فوضعهن في الأرض فخرسن) [١].

الرأي الثاني: أن التسبيح يكون من الكل الأحياء والجمادات، ولكن يختلف، ولكلٍ تسبيحٌ بحسبه، فمن العقلاء بالذكر والتحميد والتمجيد، كالإنسان والملائكة والجن، ومن غير العاقل سواء الحيوان والطير والنبات والجماد، فيكون بالدلالة، بأن يشهد على نفسه، ويدل على أن الله تعالى خالق قادر.

الرأي الثالث: أن التسبيح يكون مما له روح أي: من الحي أو النامي، سواء الحيوان أو النبات وما عداه مما لا روح فيه فلا يسبح.

روي هذا القول عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. قال: كل شيء فيه روح يسبح، من شجر أو شيء فيه [٢].

الدليل:

يستدل أصحاب هذا القول بما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيﷺ: (أنه مرَّ بقبرين يعذبان فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها بنصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، فقالوا: يا رسول الله لم صنعت هذا؟ فقال: لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا)[٣].

---

(١) مسند الشاميين (٤ / ٢٤٦)، قال ابن كثير: وهو حديث مشهور في المسانيد، تفسير القرآن العظيم ص (١١١٩)

(٢) تفسير القرآن العظيم ص (١١٢٠).

(٣) رواه البخاري في كتاب الوضوء، باب: ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٨)، وفي كتاب الجنائز، باب: الجريد على القبر، رقم (١٣٦١)، ورواه مسلم في كتاب الطهرة، باب: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

فقوله : (ما لم يبسا) إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبحان، فإذا يبسا صارا جماداً[1].

الرأي الراجح:

الراجح من الأقوال الرأي الأول، وهو أن لفظ التسبيح محمول على حقيقته في التنزيه والتحميد، من جميع المخلوقات الأحياء منهم والجمادات، التي تغير حاله أو لم يتغير، فكل شيء على العموم يسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه.

قال الإمام البغوي: "واعلم أن الله تعالى أودع علماً في الجمادات لا يقف عليه غيره، فينبغي أن يوكل علمه إليه" [2].

والأدلة تؤكد على هذا القول، ومن ذلك:

١- صريح قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. بأن كل شيء يسبح، ولكن لا نفقه تسبيحهم. وفيه رد على من بقول بأن المقصود هو تسبيح الدلالة. فالحامل لهم على هذا القول هو: تحكيم الحس والعقل حينما لم يشاهدوا ذلك، ولم تتصوره العقول، ولكنَّ الله تعالى نفى تحكيم العقل الحسي هنا وما قد يخطر على العقل بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

٢- قوله تعالى في حق نبي الله داود عليه السلام: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص: ١٨]. فلو كان تسبيحها معه تسبيح دلالة كما يقولون لما كان لداود عليه السلام خصوصية على غيره.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٦٧/١٠).

(٢) معالم التنزيل ص (٧٤٤).

٣- أخبر الله تعالى أن لهذه العوالم كلها إدراكاً تاماً، كإدراك الإنسان أو أشد منه، قال تعالى عن السماوات والأرض والجبال: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فأثبت الله تعالى لهذه العوالم إدراكاً وإشفاقاً من تحمل الأمانة، بينما سجل على الإنسان ظلماً وجهالة في تحمله إياها، ولم يكن هذا العرض مجرد تسخير، ولا هذا الإباء مجرد سلبية، بل عن إدراك تام، كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت: ١١]، فهما طائعتان لله، وهما يأبين أن يحملن الأمانة إشفاقاً منها.

٤- وفي أواخر هذه السورة الكريمة سورة الحشر قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]، ومثله قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤]. وهذا هو عين الإدراك أشدّ من إدراك الإنسان.

٥- إخبار الرسول ﷺ عن وصية نوح عليه السلام والتي فيها أن قول: (سبحان الله وبحمده) صلاة كل شيء، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ طَيَالِسَةٍ مَكْفُوفَةٍ بِالدِّيبَاجِ، فَقَالَ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا يُرِيدُ رَفْعَ كُلِّ رَاعٍ وَابْنِ رَاعٍ، وَيَضَعُ كُلَّ فَارِسٍ وَابْنَ فَارِسٍ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَلَسَ، فَقَالَ: " إِنَّ نُوحًا لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَعَا ابْنَيْهِ فَقَالَ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكُمَا الْوَصِيَّةَ: آمُرُكُمَا بِاثْنَيْنِ وَأَنْهَاكُمَا عَنِ اثْنَيْنِ: أَنْهَاكُمَا عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ وَآمُرُكُمَا بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى كَانَتْ أَرْجَحَ مِنْهُمَا، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا كَانَتْ

حَلْقَةً فَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِمَا لَقَصَمَتْهُمَا، وَآمُرُكُمَا بِسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّهُمَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ)[1].

٦- في الحديث: عن أبي سعيد الخدري ﷺقال: (إِذَا كُنْتَ فِي الْبَوَادِي فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا يَسْمَعُ صَوْتَهُ شَجَرٌ وَلَا مَدَرٌ وَلَا حَجَرٌ وَلَا جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ)[2]. فبم سيشهد إن لم يك مدركاً الأذان والمؤذن؟

٧- وعن إدراك الطير قال تعالى عن الهدهد يخاطب نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: ٢٢-٢٣].

ففي هذا السياق عشر قضايا يدركها الهدهد ويفصح عنها لنبي الله سليمان عليه السلام[3] .

٨- ما جاء عن النملة في قوله تعالى عنها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: ١٨].

فقد أدركَت مجيء الجيش، وأنه لسليمان وجنوده، وأدركت كثرتهم، وأن عليها وعلى النمل أن يتجنبوا الطريق، ويدخلوا مساكنهم، وهذا الإدراك منها جعل

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/٢٢٥)، رقم الحديث (٧١٠١)، وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح، ورواه الحاكم في المستدرك (١/١١٢) رقم الحديث(١٥٤)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَا، وقال الذهبي في التلخيص : صحيح الإسناد.

(٢) رواه ابن ماجه، في كتاب الأذان والسنة فيها، باب: فضل الأذان وثواب المؤذنين، رقم (٧٢٣)، وقال الألباني: صحيح، وابن خزيمة، في صحيحه، كتاب الصلاة، بَابُ فَضْلِ الْأَذَانِ وَرَفْعِ الصَّوْتِ بِهِ (١ / ٢٠٣)، رقم الحديث (٣٨٩).

(٣) انظر تفصيلها في أضواء البيان (٨/١٨-١٩).

سليمان عليه السلام يتبسم ضاحكاً من قولها، وأن لها قولاً علمه سليمان عليه السلام.

٩- وقد جاء في السنة إثبات إدراك الحيوانات للمغيبات، فضلاً عن المشاهدات، كما في حديث النبي ﷺ في فضل يوم الجمعة: قال ﷺ: (خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ وَهِيَ مُصِيخَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، مِنْ حِينِ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلاَّ الْجِنَّ وَالإِنْسَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لاَ يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا، إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ)(١).

فهذا إدراك وإشفاق من الحيوان وإيمان بالمغيب، وهو قيام الساعة، وإشفاق من الساعة أشد من الإنسان.

فهذا كله يثبت إدراكاً للحيوان بالمحسوس، وبالمغيب إدراكاً لا يقل عن إدراك الإنسان، فما المانع من إثبات تسبيحها حقيقة على ما يعلمه الله تعالى منها، وقد جاء النص صريحاً في التسبيح المثبت لها، في أنه تسبيح تحميد لا مطلق دلالة كما في قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣]، وقرنه مع تسبيح الملائكة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣] وهذا نص في محل النزاع وإثبات لنوع التسبيح المطلوب.

١٠- لقد شهد المسلمون منطق الجماد بالتسبيح، وسمعوه بالتحميد حساً، كتسبيح الحصا في كفّ النبي ﷺ، وكحنين الجذع للنبي ﷺ، حتى سمعه كل من

(١) رواه مالك في الموطأ، عن أبي هريرة ﷺ في كتاب الصلاة، باب: مَا جَاءَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ (١/١٦٥)، رقم الحديث (٢٩١). والحديث صححه الألباني، وشعيب الأرناؤوط

في المسجد، وما أخبر به ﷺ: فقال: (إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بمَكَّةَ كانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أنْ أُبْعَثَ إنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ)[1]، وما ثبت بفرد يثبت لبقية أفراد جنسه، كما هو معلوم في قاعدة الواحد بالجنس والواحد بالنوع.

١١- ومن هذا القبيل في أعظم من ذلك أنَّ النَّبي ﷺ (صَعِدَ أُحُدًا، وأَبُو بَكْرٍ، وعُمَرُ، وعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بهِمْ، فَقَالَ: اثْبُتْ أُحُدُ؛ فإنَّما عَلَيْكَ نَبِيٌّ، وصِدِّيقٌ، وشَهِيدَانِ) [2]، فهذا جبل من كبار جبال المدينة، يرتجف لصعود النَّبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فيخاطبه النبي ﷺ خطاب العاقل المدرك: أثبت أُحد فإن عليك نبياً وصديقاً وشهيدين، فيعرف النَّبيﷺ ويعرف الصديق والشهيد فيثبت، فبأي قانون كان ارتجافه وبأي معقول كان خطابه، وبأي معنى كان ثبوته.

١٢- وفي الحديث عن أنس بن مالك ﷺ (أنَّ رسول الله ﷺ طَلَعَ لَهُ أُحُدٌ، فَقَالَ: هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ، اللهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا) [3].

يثبت له صلى الله عليه وسلم، المحبة المتبادلة بقوله يحبنا ونحبه.

الرد على الأقوال الأخرى:

١٣- رسم لنا النَّبي ﷺ الطريق الصحيح في مثل هذا المقام، من إثبات وإيمان، كما في الحديث: (صَلَّى رَسولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْبَلَ علَى النَّاسِ،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرةﷺ في كتاب الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، رقم (٢٢٧٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، عن أنس ، في كتاب فضائل الصحابة، باب: قول النبي ﷺ: (لو كنت متخذا خليلا)، رقم الحديث (٣٦٧٥).

(٣) رواه مالك في الموطأ في كتاب الجامع، باب: ما جاء في تحريم المدينة، (٤٦٧/٢)، رقم الحديث (٢٥٩٩).

فَقالَ: بيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقالَتْ: إنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهذا، إنَّما خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ، فَقالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ، فَقالَ: فإنِّي أُومِنُ بهذا أنَا، وأَبُو بَكْرٍ، وعُمَرُ –وما هُما ثَمَّ– وبينَما رَجُلٌ في غَنَمِهِ إذْ عَدَا الذِّئْبُ، فَذَهَبَ منها بشَاةٍ، فَطَلَبَ حتَّى كَأَنَّهُ اسْتنقَذَهَا منه، فَقالَ له الذِّئْبُ هذا: اسْتنقَذْتَهَا مِنِّي، فمَن لَهَا يَومَ السَّبُعِ، يَومَ لا رَاعِيَ لَهَا غيرِي؟! فَقالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! ذِئْبٌ يتَكَلَّمُ، قالَ: فإنِّي أُومِنُ بهذا أنَا، وأَبُو بَكْرٍ، وعُمَرُ. وما هُما ثَمَّ) (١).

ففي هذا النص الصريح نطق البقرة ونطق الذئب بكلام معقول، من خصائص العقلاء على غير العادة، مما استعجب له الناس، وسبحوا الله إعظاماً لما سمعوا، ولكن الرسول ﷺ يدفع هذا الاستعجاب بإعلان إيمانه وتصديقه، ويضم معه أبا بكر وعمر، وإن كانا غائبين عن المجلس، لعلمه منهما أنهما لا ينكران ما ثبت بالسند الصحيح لمجرد استبعاده عقلاً.

وهنا يقال لمنكري التسبيح حقيقة:

وما المانع من ذلك، أهو متعلق القدرة؟ أم استبعاد العقل لعدم الإدراك الحسي؟

فأما الأول: فممنوع لأن الله تعالى على كل شيء قدير، وقد أخرج لقوم صالح ناقة عشراء من جوف الصخرة الصماء، وأنطق الحصى في كفه ﷺ.

وأما الثاني: فلا سبيل إليه حتى ينتظر إدراكه، وتحكيم العقل فيه، فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤].

فلم يبق إلا الإيمان أشبه ما يكون بالمغيبات، وإيمان تصديق وإثبات، لا تكييف وإدراك، وخالق الكائنات أعلم بحالها وبما خلقها عليه.

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، رقم الحديث (٣٤٧١)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر ﷺ، رقم الحديث (٢٣٨٨).

فيجب أن نؤمن بتسبيح كل ما في السماوات والأرض، وإن كان مستغرباً عقلاً، ولكن أخبر به خالقه سبحانه.

المبحث الثاني: بيان قصة بني النضير، وحشرهم إلى خارج ديارهم الآية (٢)

قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر: ٢].

فيه ستة مطالب:

المطلب الأول: قول الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾:

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم، وهم بنو النضير، رهط من اليهود، من ذرية هارون عليه السلام، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل، انتظاراً لمحمد ﷺ، وكان من أمرهم ما أخبرنا الله تعالى به في هذه السورة(١).

المطلب الثاني: قول الله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾:

الحشر: الجمع. وقوله تعالى: (لأول الحشر) المقصود به ما حصل لهم في الدنيا: فالوارد في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ [الحشر:٢]

وقد كانوا من سبط لم يصبهم جلاء، وكان الله عز وجل قد كتب عليهم الجلاء، فلولا ذلك لعذبهم في الدنيا، وكان هذا أول حشر لهم، فقد حشروا في الدنيا إلى الشام. وفي الآخرة يحشرون في المحشر مع الناس(٢).

---

(١) ينظر: زاد المسير (٢٥٤/٤)، تفسير القرطبي (٢/١٨).

(٢) وهناك أقوال أخرى في بيان أول وآخر الحشر، ينظر: تفسير الطبري (٢٦٣/٢٣) تفسير القرطبي (٢/١٨).

المطلب الثالث: قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾أي: ما ظننتم أن يخرج هؤلاء الذين أخرجهم الله من ديارهم من أهل الكتاب من مساكنهم ومنازلهم، وذلك لعظم أمر اليهود ومنعتهم وقوتهم في صدور المسلمين، واجتماع كلمتهم.

وظنَّ اليهود أنَّ حصونهم المنيعة وسلاحهم الكثير سوف يمنعهم من أمر الله، وتأمَّلوا في نصرة المنافقين لهم، لأنَّ عبد الله بن أُبيّ، وجماعة من المنافقين بعثوا إلى اليهود لما حاصرهم رسول الله ﷺ يأمرونهم بالثبات في حصونهم، ويعدونهم النصر(١).

المطلب الرابع: قول الله تعالى: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾

أي: فأتاهم أمر الله تعالى وعذابه من حيث لم يحتسبوا أنه يأتيهم.

وقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب، وذلك بنزول رسول الله ﷺ بهم في أصحابه.

وفي الصحيح أنَّ النبي ﷺ قال: (نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ)(٢).

المطلب الخامس: قول الله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ :ورد في قوله تعالى(يخربون) قراءاتان وهما:

القراءة الأولى: (يُخْرِبون) بتخفيف الرَّاء، بمعنى يخرجون منها ويتركونها معطلة خرابًا، وهي قراءة العامة.

---

(١) ينظر تفسير الطبري (٢٣/٦٤).

(٢) جزء من حديث رواه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: قول النبيﷺ: (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا)، حديث (٤٣٨)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: ابتناء مسجد النبيﷺ، حديث(٥٢١).

القراءة الثانية: (يخرِّبون) بالتشديد في الرَّاء، من التخريب، بمعنى يهدّمون بيوتهم[1].

قالوا: لأنَّ الإخراب ترك الشيء خراباً بغير ساكن، وأنَّ بني النضير لم يتركوها خراباً، وإنما خربوها بالهدم، ويؤيده قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقال آخرون: التخريب والإخراب بمعنى واحد، والتشديد بمعنى: التكثير [2].

ويمكن الجمع بين القراءتين بأنَّ كلا المعنيين حاصلين في حالهم، والله تعالى أعلم.

والمعنى أنه لما صالحهم النبي ﷺ على أنَّ لهم ما أقلَّت الإبل، كانوا يستحسنون الخشبة والعمود، فيهدمون بيوتهم ويحملون ذلك على إبلهم ويخرب المؤمنون باقيها، ورُوي أيضا أنهم كانوا يخربونها، لئلا يسكنها المسلمون بعدهم. وقد كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا، واليهود يخربون من داخل ليبنوا به ما خرب من حصنهم.

وقد كانت منازلهم، مزخرفة فحسدوا المسلمين أن يسكنوها، فخربوها من داخل، وخربها المسلمون من خارج.

المطلب السادس: قول الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾:

يخاطب الله تعالى أصحاب العقول والألباب، ومعاشر ذوي الأفهام، وكلَّ من عاين ذلك الجَلَاءَ ببصره، وفهم بعقله وقلبه، بأنْ يعتبروا بهذه الأحداث.

ومن أوجه الاعتبار التي أشار إليها المفسرون رحمهم الله:

١- أنَّ هؤلاء اليهود قد اعتصموا بالحصون من الله تعالى، فأنزلهم الله منها.

٢- أنَّ الله تعالى قد سلَّط على اليهود من كان ينصرهم.

---

(١) وهي قراءة السلمي والحسن ونصر بن عاصم وأبي العالية وقتادة وأبي عمرو.

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٢٣/٢٦٦).

٣- أنَّ اليهود هدموا أموالهم وبيوتهم بأيديهم.

٤- أنَّ الله تعالى قذف في قلوب اليهود الرعب، وهم في حصونهم من نقمته عليهم.

٥- أنَّ الله تعالى وليُّ من والاه، وناصر رسوله على كلّ من عاداه، وستحلُّ نقمته على من أراد به سوءًا كما أحلّ ببني النضير. (١).

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٦٦)، وتفسير القرطبي (٥/١٨).

المبحث الثالث: حكمة الله تعالى في جلاء بني النضير، وسبب عذابهم في الدنيا والآخرة. الآيات (٣-٤)

قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾ [الحشر: ٣-٤].

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾

بيّن الله تعالى في هذه الآية الحكمة من جَلَاء بني النضير، وأنه سبحانه وتعالى لم يعذبهم بالقتل والسبي وقتئذٍ. فإنَّ الله تعالى قد كتب عليهم أنه سيجليهم عن دارهم وأنهم يبقون مدة فيؤمن بعضهم بالله ورسوله، ويولد لهم من سيؤمن.

والجلاء: هو مفارقة الوطن، يقال: جلا بنفسه، جلاء، وأجلاه غيره إجلاء.

والفرق بين الجلاء والإخراج[1]: وإن كان معناهما في الإبعاد واحدًا من وجهين:

الوجه الأول: أَنَّ الْجَلَاءَ مَا كَانَ مَعَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَالْإِخْرَاجُ قد يكون مع بقاءهم.

الوجه الثاني: أَنَّ الْجَلَاءَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِجَمَاعَةٍ، وَالْإِخْرَاجَ يَكُونُ لِوَاحِدٍ وَلِجَمَاعَةٍ.

المطلب الثاني: قول الله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾

بيَّن الله تعالى أنَّ مصير بني النضير في الآخرة سيكون إلى النار، وهو تخويف وردع لهم، لعلهم يعتبرون ويؤمنون.

(١) ينظر: تفسير النكت والعيون للماوردي (٥/٥٠١)، وتفسير القرطبي (٥/١٨) .

قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: (وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ، غَيْرُ مُتَعَلِّقَةٍ بِجَوَابِ لَوْلَا، مُتَضَمِّنَةٌ لِبَيَانِ مَا يَحْصُلُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَإِنْ نَجَوْا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا"[١]،

المطلب الثالث: قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بيَّن الله تعالى في هذه الآية سبب عذاب بني النضير في الدنيا بالجّلَاء، ثم دخولهم يوم القيامة النار، وهو: معاداتهم لله تعالى ولرسولهﷺ.

وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: (ذلِكَ) إلى ما تقدم ذكره من الجلاء في الدنيا والعذاب في الآخرة بأنهم شاقوا الله ورسوله أي: بسبب المشاقة منهم لله ولرسوله بعدم الطاعة، والميل مع الكفار، ونقض العهد مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْجَلَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ

(وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ) اقتصرت الآية هنا عَلَى ذكر مُشَاقَّةِ اللَّهِ، لِأَنَّ مُشَاقَّةَ الله تعالى هي مُشَاقَّةٌ لِرَسُولِهِ ﷺ [٢].

وورد في قوله تعالى: (يشاق) قراءتان[٣] هما:

القراءة الأولى: (يُشَاقِّ) بِالْإِدْغَامِ.

القراءة الثانية: (يُشَاقِقُ) بِالْفَكِّ.

والمشاقة كون الإنسان في شق ومخالفه في شق آخر[٤].

---

(١) ينظر: تفسير الماوردي، وتفسير ابن عطية(٥/٢٣٤).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢٣٤).

(٣) قرأ بالأولى الجمهور، وبالثانية: وَقَرَأَ طَلْحَةُ بْنُ مصرّف ومحمد بن السّميقع، ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/٥٥٦).

(٤) ينظر: تفسير ابن عطية (٥/٢٨٥).

المبحث الرابع: بيان ما حصل من قطع الصحابة ﷺ لنخيل بني النضير، الآية (٥)

قول الله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾[الحشر: ٥]

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى ﴿ لِّينَةٍ ﴾:

أصل اللينة لونة، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وجمع اللينة: لين، وقيل: ليان.

واختلف المفسرون في تفسير اللينة، على أقوال:

١- إنها النخل كله إلا العجوة.

٢- إنها النخل كله، ولم يستثن عجوة ولا غيرها.

٣- هي كرام النخل.

٤- إنها جميع أنواع التمر سوى العجوة والبرني.

٥- إنها العجوة خاصة.

٦- هي ضرب من النخل، يقال لتمره: اللون، تمره أجود التمر.

٧- هي الدقل.

المطلب الثاني: قطع الصحابة ﷺ لنخيل بني النضير:

وردَ أنَّ بعض المهاجرين وقعوا في قطع النخل فنهاهم بعضهم، وقالوا: إنما هي مغانم للمسلمين، وقال الذين قطعوا: بل هو غيظ للعدو.

وقال بنو النضير وهم أهل كتاب: يا محمد ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر؟ وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، ووجد المسلمون في أنفسهم فنزلت الآية، ومعنى الآية: أي شيء قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن الله.

﴿ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾أي: ليذل الخارجين عن الطاعة، وهم اليهود، ويغيظهم في قطعها وتركها لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف شاؤوا من القطع والترك ازدادوا غيظا.

وقد استدل بهذه الآية على جواز الاجتهاد وعلى تصويب المجتهدين [١].

المطلب الثالث: حكم تخريب دار العدو:

استنادًا على هذه الآية الكريمة نجد أن العلماء رحمهم الله اختلفوا في حكم تخريب دار العدو وتحريقها وقطع ثمارها على قولين:

القول الأول: أن ذلك جائز، إن كان فيه مصلحة.

القول الثاني: إِنْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ ذَلِكَ سيكون لَهُمْ، لَمْ يَفْعَلُوا، وَإِنْ يَئِسُوا فَعَلُوا.

والراجح هو القول الأول، فقد علم رسول الله ﷺ أنَّ نخل بني النضير له، ولكنه قطع وحرق ليكون ذلك نكاية لهم ووهنا فيهم، حتى يخرجوا عنها، وإتلاف بعض المال لصلاح باقيه مصلحة جائزة شرعًا مقصودة عقلًا [٢]، والله تعالى أعلم.

المبحث الخامس: بيان أحكام الفيء: الآيات: (٦-٧).

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر: ٦-٧]

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٦/١٨)، فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٨/١٨).

فيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الفرق بين الفيء الوارد في الآيتين والغنيمة [1]:

أولا: معنى الفيء:

معنى الفيء في اللغة: من فاء الشيء على فلان: إذا رجع إليه، وأفأته أنا عليه: إذا رددته عليه.

الفيء اصطلاحا: هو كل ما دخل على المسلمين من غير حرب، ولا إيجاف، كخراج الأرض، وجزية الجماجم، وخمس الغنيمة، ونحو هذا[2]،

ثانيا: أنواع الفيء الواردة في السورة، والفرق بينهما:

ورد في السورة نوعان للفيء، هما:

النوع الأول: هو الفيء الوارد في الآية (٦) يختلف عن الفيء الذي في الآية (٧).

فالفيء الذي في قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ [الحشر: ٦]

هو ما ردَّه الله تعالى على رسوله ﷺ من أموال بني النضير.

وقد بيَّن الله تعالى أنَّ هذه الأموال لم تكن نتيجة حرب وقتال، فقال تعالى: ﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يقول: فما أوضعتم فيه من خيل ولا في إبل وهي الركاب. وإنما وصف جلّ ثناؤه الذي أفاءه على رسوله منهم بأنه لم

---

(١) اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في الفرق بين الغنيمة والفيء، ينظر تفسير الآية: (٤١) من سورة الأنفال، في تفسير الطبري، (١٣/٥٤٥-٥٤٧)، وفي تفسير سورة الحشر (٢٣/٢٧٣-٢٧٥).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٥٢٨).

يوجف عليه بخيل من أجل أنَّ المسلمين لم يلقوا في ذلك حربًا، ولا كلفوا فيه مئونة، وإنما كان القوم معهم، وفي بلدهم، فلم يكن فيه إيجاف خيل ولا ركاب(١).

وقد جعل الله تعالى هذا الفيء حقاً لرسول الله ﷺ ، خاصة، ولم يجعل له شريكًا، فكان رسول الله ﷺ ينفق على أهله منه سنتهم، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله.

وقسم رسول الله ﷺ سائرها في المهاجرين، ولم يعط منها الأنصار شيئا، غير أنَّ أبا دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف شكيا عظيمة فأعطاهما(٢).

النوع الثاني: هو الفيء الذي في قول الله تعالى: ﴿ **مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ** ﴾ [الحشر: ٧]: هو ما ردَّه الله تعالى على رسوله من أموال (أَهْلِ الْقُرى المذكورون في هذه الآية) وهم أهل الصفراء والينبوع ووادي القرى، وما هنالك من قرى العرب التي تسمى قرى عربية، وذلك أنها في ذلك الوقت فُتحت، ويروى أنَّ رسول الله ﷺ بعث بعثا إلى هذه القرى فأطاعوه ودفعوا الفيء، فكان مما لم يوجف عليه، ويلتحق بهذا النوع من الفيء: الجزية والخراج، وكل ما دخل على بلاد المسلمين صلحا بدون حرب.

وحكمها مخالف للفيء الذي كان من بني النضير.

وقد بيَّنت الآية مصاريف هذا النوع من الفيء، فقال تعالى: ﴿ **فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ [الحشر: ٧].

---

(١) الإيجاف: سرعة السير والاجتهاد فيه. ينظر: جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٢٧٣)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٨٦).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٨٥).

فهذا النوع من الفيء **كان حكمه حكم خمس الغنائم**، وليس في الآية نسخ على هذا التأويل[1]، وأعطى رسول الله ﷺ جميع ذلك للمهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئا[2].

ولم يحبس رسول الله ﷺ لنفسه شيئًا من أموال هذا الفيء، بل أمضاها لغيره.

وقد وردت في هذه الآية خمسة أصناف تقسم عليها أموال هذا النوع من الفيء، وهي:

١- **لله وللرسول ﷺ:** يضعه رسول الله ﷺ حيث يرى. وهذا القسم بعد وفاة النبي ﷺ أصبح لمن ولي أمر المسلمين، ويضعه في منافع المسلمين، وإلى هذا أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله: " (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) حتى بلغ (لِلْفُقَرَاءِ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ) ، ثم قال: استوعبت هذه الآية المسلمين عامة، فليس أحد إلا له حق، ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي وهو يسير حُمُرَه نصيبهُ، لم يعرق فيها جبينه."[3].

٢- **ذِو الْقُرْبَى:** وهم قرابة رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم من بني هاشم وبني المطلب.

٣- **اليتامى:** وهم أهل الحاجة من أطفال المسلمين الذين لا مال لهم.

٤- **المساكين:** وهم الجامعون فاقة وذلّ المسألة.

٥- **ابن السبيل:** وهم المنقطع بهم من المسافرين في غير معصية الله عزّ وجلّ.

---

(١) اختلف العلماء رحمهم الله في هذه الآية، فقال بعضهم إنها نُسخت بآية الأنفال التي وردت في تقسيم الغنائم، والراجح أنها محكمة غير منسوخة، والله تعالى أعلم. ينظر: جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٢٧٥-٢٧٧)، وتفسير القرطبي (١٨/ ١٢-١٦٩).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٨٦).

(٣) جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٢٧٦).

وهذه الأقسام الخمسة هي نفسها الأقسام التي يصرف فيها خمس الغنيمة.

ثالثا: معنى الغنيمة:

الغنيمة هي: ما أصاب المسلمون من المشركين عنوة بقتال[١].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الأنفال: ٤١].

فقد بيَّنت هذه الآية كيفية تقسيم الغنائم وهي كالتالي:

تقسم الغنيمة على خمسة أقسام: وتوزع كالتالي:

١- أربعة منها، أي: (أربعة أخماس الغنيمة) يتم توزيعها على من شارك في القتال.

٢- قسم منها وهو (خمس الغنيمة) يتم تقسيمه على (خمسة أقسام) وهي نفس الأقسام الواردة في تقسيم الفيء الوارد في الآية (٧) من سورة الحشر [٢].

المطلب الثالث: الفرق بين الذين يستحقون الفيء، وخمس الغنيمة، وبين مصارف الزكاة:

بيَّنت الآية (٦٠) في سورة التوبة مصارف الزكاة، أي الأصناف التي تستحق صرف الزكاة[٣] لهم، ولوجود التشابه والتداخل بين الأقسام رأيت أن أذكرها هنا باختصار. مع وضعها في جدول لتكون أكثر وضوحا:

---

(١) جامع البيان ت شاكر (١٣/ ٥٤٦).

(٢) جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٢٧٧).

(٣) لمعرفة هذه الأصناف بالتفصيل والفرق بينها، ينظر: تفسير الطبري ت شاكر (١٤/ ٣٠٥-٣٢٤)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٣/ ٤٧-٥١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠].

وقال الله تعالى عن مصارف الفيء: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧].

	مصارف الزكاة	مصارف الفيء = مصارف خمس الغنيمة
١	الفقراء	لله وللرسول ﷺ
٢	المساكين	قرابة رسول الله ﷺ
٣	العاملين عليها	اليتامى
٤	المؤلفة قلوبهم	المساكين
٥	في الرقاب	ابن السبيل
٦	الغارمين	
٧	في سبيل الله	
٨	ابن السبيل	

بالمقارنة بين الأصناف نجد أن هناك صنفين مشتركين وهما: المساكين + ابن السبيل، وقد يكون اليتامى فقراء فيستحقون الزكاة، وأما المصرف الأول من مصارف الفيء، (لله وللرسول) فإنه يتسع لكل ما هو من مصالح المسلمين، فيتسع لمصارف الزكاة الثمانية، وغيرها من مصالح المسلمين، لكن أموال الزكاة هي محددة في هذه الأصناف الثمانية، ولا يصح صرفها لغير مستحق لها، والله تعالى أعلم.

المطلب الرابع: بيان الحكمة من تحديد مصارف الفيء، قول الله تعالى﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧].

في هذه الآية يبين الله تعالى الحكمة من تحديد مصارف الفيء في هذه الأصناف، وذلك حتى لا يكون ذلك الفيء دُولة[١]، يتداوله الأغنياء بينهم، فيجعلونه حيث شاءوا، فقد يصرفونه في حاجات أنفسهم، دون الفقراء والمساكين، وربما أنفقوه في أبواب البرّ وسُبلُ الخير، وحتى لا يكون ذلك الأمر يرجع للأغنياء، واجتهادهم أو اتباع هوى النفس، بيَّن الله تعالى هذه الأصناف وجعلها سنة لا تُغير ولا تُبدّل[٢].

المطلب الخامس: الأمر بتقوى الله تعالى، وبقبول حكم الله في تقسيم الفيء، قول الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧]:

أمر الله تعالى المؤمنين بتقواه، وذلك بأن يقبلوا حكم الله تعالى ورسوله، وهو محمول على العموم في جميع الأوامر والنواهي، فإنَّ الله تعالى لا يأمر إلا بصلاح، ولا ينهى إلا عن فساد. وذكَّر الله تعالى عباده في ختام هذه الآية بأنَّه شديد العقاب لمن خالف أمره وأمر رسوله ﷺ.

---

(١) قرأ جمهور الناس: «دُولة» بضم الدال ونصب الهاء. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «دَولة» بفتح الدال ونصب الهاء. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وهشام عن ابن عامر: «دولة» بضم الدال والهاء ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٥/ ٢٨٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري ت شاكر (٢٣/ ٢٧٩)

والآية وإن كانت تُحمل على العموم إلا إنَّ سياق الآية يفيد معنى مرتبطا بمضمون الآية، حيث بيّنت مستحقي الفيء، فيكون المعنى: ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه وما منعكم منه فلا تطلبوه.

المبحث السادس: الثناء على المهاجرين والأنصار والذين جاؤوا من بعدهم، الآيات (٨-١٠):

قول الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ٨-١٠].

أثنى الله تعالى في هذه الآيات الثلاث، على ثلاثة أصناف من المؤمنين، وبيَّن ما تميَّزوا به فيما يتناسب مع سياق الآيات وموضوع السورة، وفيما يأتي بيان هذه الأصناف الثلاثة من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: المهاجرون من الصحابة رضي الله عنهم.

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وهذا هو الصنف الأول، وقد وردت في الآية عدة صفات لهم، وهي:

١- أنهم فقراء، فقد كان الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع.

ونسبهم الله تعالى إلى الفقر، وجعل الله لهم نصيبًا في الفيء، وفي الزكاة، وخمس الغنيمة.

وذكر العلماء أنهم حتى بعد أنْ أصبح لأحدهم العبد والزوجة والدار والناقة يحج عليها ويغزو، إلا أنَّه لهم نصيب من هذا الفيء، لنص الآية على ذلك [١].

٢- أنهم هاجروا إلى النبي ﷺ حبًا فيه، ونصرة له، وقد تركوا ديارهم وأموالهم والأهلين والأوطان حبًا لله ولرسوله ﷺ،

٣- أنهم يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا أي: يطلبون فضلا من الله: أي: غنيمة في الدنيا، ورضوانا: في الآخرة أي مرضاة ربهم

٤- أنهم ينصرون الله ورسوله في الجهاد في سبيل الله.

٥- أنهم هم الصادقون: في فعلهم ذلك.

المطلب الثاني: الأنصار من الصحابة رضي الله عنهم.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

وهذا هو الصنف الثاني: الأنصار من الصحابة رضي الله عنهم.

وفي الآية ابتداء كلام في مدح الأنصار، والثناء عليهم فإنهم سلموا ذلك الفيء للمهاجرين، وكأنه قال الفيء للفقراء المهاجرين، والأنصار يحبون لهم، لم يحسدوهم على ما صفا لهم من الفيء وكذا[٢].

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٢٢/١٨).

(٢) وقال بعضهم: إنها معطوفة ما قبلها، وعلى هذا أنَّ الأنصار شركاء في الفيء، ينظر: تفسير القرطبي (٢١/١٨).

وقد وردت عدة صفات للأنصار في هذه الآية وهي[1]:

١- تبوؤا الدار قبل المهاجرين: أي: استوطنوا المدينة قبل المهاجرين إليها.

٢- تبؤوا الإيمان: أي: اعتقدوا الإيمان وأخلصوه، قبل هجرة النبي ﷺ إليهم.

٣- يحبون المهاجرين: {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ}، وهذه الصفة تدل على كرم أخلاقهم وحسن استقبالهم لإخوانهم المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم في سبيل الله. لم يشعر الأنصار بالضيق أو الحسد تجاه المهاجرين، بل أحبوهم وآووهم، وتقاسموا معهم ما يملكون، ومن ذلك ما جاء في قصة عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ، وسَعْدِ بنِ الرَّبِيعِ رضي الله عنهما، (لَمَّا قَدِمُوا المَدِينَةَ آخَى رَسولُ اللَّهِ ﷺ بيْنَ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ[2]، وسَعْدِ بنِ الرَّبِيعِ[3]، قالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: إنِّي أكْثَرُ الأنْصَارِ مَالًا، فأقْسِمُ مَالِي نِصْفَيْنِ، ولِي امْرَأَتَانِ فَانْظُرْ أعْجَبَهُما إلَيْكَ فَسَمِّهَا لي أُطَلِّقْهَا، فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَتَزَوَّجْهَا، قالَ: بَارَكَ اللَّهُ لكَ في أهْلِكَ ومَالِكَ، أيْنَ سُوقُكُمْ؟ فَدَلُّوهُ علَى سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ[4]، فَما انْقَلَبَ إلَّا ومعهُ

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/٢٤-٢٥).

(٢) عَبْد الرَّحْمَن بن عوف بن عَبْد عوف بن عَبْد بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ولد بعد الفيل بعشر سنين، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرا، واحدا، والمشاهد كلها مع رَسُول اللَّهِ ﷺ. وكان اسمه في الجاهلية: عبد الكعبة، ويُقال: عَبْد عَمْرو فسماه النبي ﷺ: عَبْد الرحمن، وهو أمين رَسُول اللَّهِ ﷺ على نسائه، وصلى رَسُول اللَّهِ ﷺ وراءه فِي غزوة تبوك، مات سنة (٣٢هـ) وكان عمره (٧٥ سنة)، ينظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١٧/ ٣٢٤-٣٢٨).

(٣) سعد بْن الربيع بْن عَمْرو بْن أَبِي زُهَيْر بْن مَالِك بْن امرئ القيس الأنصاري الخزرجي، عقبي، بدري، نقيب، كان أحد نقباء الأنصار، وكان كاتبًا في الجاهلية، شهد العقبة الأولى والثانية، وقتل يَوْم أحد شهيدًا. ينظر: أسد الغابة ط الفكر (٢/ ١٩٦)

(٤) مِن قَبائلِ اليَهودِ الذين كانوا في المَدينةِ، أضيف إليهم سوق كان بها، ويقال له: سوق بني قينقاع، ينظر: معجم البلدان ط دار الفكر (٤/ ٤٢٤).

فَضْلٌ مِن أَقِطٍ[١] وسَمْنٍ، ثُمَّ تَابَعَ الغُدُوَّ، ثُمَّ جَاءَ يَوْمًا وبِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: مَهْيَمْ[٢]، قالَ: تَزَوَّجْتُ، قالَ: كَمْ سُقْتَ إلَيْهَا؟ قالَ: نَوَاةً مِن ذَهَبٍ، – أوْ وزْنَ نَوَاةٍ مِن ذَهَبٍ، شَكَّ إبْرَاهِيمُ –)[٣].

٤- عدم وجود الحسد في صدورهم: قال تعالى: {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا}، أي لا يجدون في أنفسهم حسدًا أو غيظًا تجاه ما فضّل الله به المهاجرين من المال والمنزلة. هذه الصفة تشير إلى سلامة قلوبهم ونقائها من أي شعور سلبي تجاه إخوانهم.

٥- الإيثار على النفس مع الحاجة: قال تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}، والإيثار هو تقديم الغير على النفس في المنافع مع الحاجة إلى ذلك الشيء. ولقد كان الأنصار رضي الله عنهم يقدمون حاجات إخوانهم المهاجرين على حاجاتهم الخاصة، حتى في أوقات العسر والضيق والحاجة الشديدة. وهذا يدل على عظيم تضحيتهم وكرمهم. وقد وردت العديد من الروايات في إيثار الأنصار ﷺ، ومن ذلك ما جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة، عن أبي هريرة ﷺ: (أنَّ رَجُلًا أتَى النَّبيَّ ﷺ، فَبَعَثَ إلى نِسَائِهِ، فَقُلْنَ: ما معنَا إلَّا المَاءُ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: مَن يَضُمُّ –أوْ يُضِيفُ– هذا؟

(١) هو اللَّبنُ المُجَفَّفُ، لبن محمض يجمد حَتَّى يستحجر، أو يُطْبَخُ ثمّ يُترَك حتىّ يمْصُل، ويطبخ أَو يطْبخ بِهِ، ينظر: مادة (الإقط)، معجم مقاييس اللغة (١٢١/١)، والمعجم الوسيط (١/ ٢٢).

(٢) أَيْ مَا أَمْرُكُ وشَأْنُك؟ وَهِيَ كَلِمةٌ يَمانيَّةٌ، ينظر: مادة (مهيم) في النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٧٨).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، عن إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه عن جده ﷺ، في كتاب مناقب الأنصار، باب: إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، (٣٧٨٠).

فَقالَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ: أنَا، فَانْطَلَقَ به إلى امْرَأَتِهِ، فَقالَ: أكْرِمِي ضَيْفَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقالَتْ: ما عِنْدَنَا إلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، ونَوِّمِي صِبْيَانَكِ إذَا أرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، ونَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فأطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أنَّهُما يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ ، فَلَمَّا أصْبَحَ غَدَا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقالَ: ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ -أوْ عَجِبَ- مِن فَعَالِكُما. فأنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩])[1].

٦- أنهم مفلحون. فقد ختم الله الآية بالإشارة إلى فلاح من يتصف بصفة أخرى عظيمة وهي وقاية شح النفس: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، أي من سلم من بخل نفسه وحرصها المذموم، فأولئك هم الفائزون. وعلى الرغم من أن هذه الصفة عامة، إلا أنها تتجلى بوضوح في فعل الأنصار بالإيثار.

المطلب الثالث: الثناء على المؤمنين الذين جاؤوا من بعد المهاجرين والأنصار الآية (١٠)

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

وهذا هو الصنف الثالث الوارد في هذه السورة: وهم الذين جاؤوا من بعد الصحابة رضي الله عنهم من التابعين وتابع التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، رقم (٣٧٩٨).

الدين. فيدخل فيهم كل من دخل في الإسلام بعد الصحابة رضوان الله عليهم إلى قيام الساعة.

ففي هذه الآية وردت صفتان رئيسيتان للمؤمنين الذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار:

١- الدعاء والاستغفار للمؤمنين السابقين: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ ، وهذه الصفة تدل على أدبهم الجمّ وحسن عشرتهم لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان من المهاجرين والأنصار. إنهم يدعون الله تعالى بالمغفرة لهم ولإخوانهم السابقين، وهذا يعكس محبتهم وتقديرهم لهم.

٢- سلامة القلب من الغل والحقد على المؤمنين: قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ ، والغل هو الحقد والكراهية الخفية في القلب. فهؤلاء المؤمنون الذين جاءوا من بعد، يدعون الله تعالى أنْ يطهر قلوبهم من أي غل أو حقد تجاه إخوانهم المؤمنين السابقين. هذه الصفة تشير إلى نقاء قلوبهم وسلامتها وحرصهم على وحدة صف المؤمنين.

وهذه الصفات تعكس الروح الأخوية العالية التي يجب أن تسود بين المؤمنين في كل زمان ومكان.

وفي هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة لأنه جعل لمن بعدهم حظا في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم وأن من سبهم أو واحدًا منهم أو اعتقد فيه شرًا إنه لا حق له في الفيء، قال مالك رحمه الله: "من كان يبغض أحدًا من أصحاب محمد ﷺ أو كان في قلبه عليهم غلٌّ فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ الآية"[(١)].

(١) تفسير القرطبي (٣٢/١٨).

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال النبيﷺ: (لا تَسُبُّوا أصْحابِي؛ فلوْ أنَّ أحَدَكُمْ أنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما بَلَغَ مُدَّ أحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ)(١).

وقال العوام بن حوشب(٢): "أدركت صدر هذه الأمة يقولون: اذكروا محاسن أصحاب رسول الله ﷺ التى تألف عليهم القلوب، ولا تذكروا ما شجر بينهم فتجسروا الناس عليهم" (٣).

وقد بيَّن رسول الله ﷺ أنَّ من علامة الإيمان حبّ الأنصار، وحذَّر من بغضهم، جاء في الحديث أنَّ النبيﷺ قال: (الأنْصارُ لا يُحِبُّهُمْ إلَّا مُؤْمِنٌ، ولا يُبْغِضُهُمْ إلَّا مُنافِقٌ، فمَن أحَبَّهُمْ أحَبَّهُ اللَّهُ، ومَن أبْغَضَهُمْ أبْغَضَهُ اللَّهُ) (٤).

المبحث السابع: بيان حال المنافقين مع بني النضير، الآيتان (١١-١٢).

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر: ١١-١٢].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب: قول النبي ﷺ: (لو كنت متخذًا خليلًا)، رقم (٣٦٧٣).

(٢) العوام بن حوشب بن يزيد بن الحارث الشيباني الربعي، ثقة صاحب سنة، ثبت، صالح، روى نحوا من مئتي حديث أو أكثر قليلا، أمر بالمعروف ونهي عَنِ المنكر، مات رحمه الله سنة (١٤٨هـ)، ينظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٢٢/ ٤٢٧-٤٣٠)

(٣) تفسير القرطبي (٣٣/١٨).

(٤) رواه البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب ﷺ ، في كتاب مناقب الأنصار، باب: حبّ الأنصار من الإيمان، رقم (٣٧٨٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن حبّ الأنصار وعليّ ﷺ من الإيمان وعلاماته، رقم (٧٥).

بيَّنت هاتان الآيتان حال المنافقين مع يهود بني النضير، حيث كشفت وعودهم الكاذبة لهم وخيانتهم.

المطلب الأول: وصف العلاقة بين المنافقين وبني النضير:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾ بدأت الآية باستفهام تعجبي يوجه إلى النبي ﷺ وكل من يتأمل، لبيان شناعة فعل المنافقين، يعني عبد الله بن أُبيّ بن سلول وأصحابه، ومن كان منهم على مثل أمرهم. وفيه تعجب من اغترار اليهود بما وعدهم المنافقون من النصر، مع علمهم بأنهم لا يعتقدون دينا ولا كتابا(١).

﴿ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ تصف الآية المنافقين بأنهم يقولون لإخوانهم من بني النضير (الذين كفروا من أهل الكتاب)، مما يدل على وجود موالاة ونصرة باطنة بينهم على الكفر.

المطلب الثاني: الوعود الكاذبة التي أعطاها المنافقون لبني النضير:

كشفت الآية عن ثلاثة وعود وعدها المنافقون لبني النضير وهي:

الوعد الأول: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ وعد المنافقون بني النضير وعدًا كاذبًا بالخروج معهم من ديارهم إذا أجلاهم المسلمون.

الوعد الثاني: ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ وهذا وعد ثانٍ قدَّمه المنافقون لبني النضير، وهو أنَّهم لن يطيعوا أحدًا يعارض بني النضير أو يأمر بخذلانهم، وهذا يشمل النبي ﷺ والمسلمين.

الوعد الثالث: ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ وعد المنافقون بني النضير بأنهم سينصرونهم إذا قاتلهم المسلمون.

(١) ينظر: تفسير الطبري ت شاكر (٢٣/ ٢٩٠)، زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٢٦٠).

المطلب الثالث: شهادة الله تعالى بكذب المنافقين في وعودهم:

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ ختم الله الآية (١١) بشهادته بأنَّ المنافقين كاذبون في وعودهم هذه. وهذا تكذيب قاطع من الله تعالى لنفاقهم وزيف أقوالهم.

المطلب الرابع: كشف الحقيقة في موقف المنافقين من وعودهم التي قدموها لبني النضير:

كشفت الآية (١٢) تفاصيل حقيقة المنافقين وموقفهم من هذه الوعود الكاذبة التي قدموها لبني النضير وخذلانهم لهم.

الموقف الأول:

﴿ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ ﴾ : كشف الله تعالى حقيقة نفاقهم وجبنهم، مؤكدًا أنهم لو أُخرج بنو النضير بالفعل من ديارهم، فإن المنافقين لن يخرجوا معهم خوفًا من المسلمين.

الموقف الثاني:

﴿ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ ﴾: يؤكد كذب وعدهم بالنصرة، مبينًا أنهم لو وقع قتال بين المسلمين وبني النضير، فإن المنافقين لن ينصروهم جبنًا وضعفًا.

الموقف الثالث:

﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾: وحتى على فرض بأنهم نصروا بني النضير في بداية الأمر، فإن نهايتهم ستكون الفرار والهزيمة، ولن ينصرهم الله بسبب كفرهم ونفاقهم.

هذه الآيات تفضح نفاق المنافقين وتواطئهم مع أعداء المسلمين، وتبين مدى ضعفهم وجبنهم وعدم قدرتهم على الوفاء بعهودهم الكاذبة.

المبحث الثامن: بيان حال المنافقين ويهود بني النضير، عند قتال المؤمنين، الآيات (١٣-١٤).

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: ١٣-١٤].

في هاتين الآيتين يُبيّن الله تعالى حال المنافقين وكفار يهود بني النضير، ومدى ضعفهم وجُبنهم وتفرُّقهم، مما يقوِّي به عباده المؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ. ونبيّن ذلك في المطالب التالية:

المطلب الأول: شدَّة رهبتهم من المؤمنين:

قال الله تعالى: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ﴾

لأنتم أيها المؤمنون أشدّ رهبة في صدور المنافقين واليهود من بني النضير من الله، فالمعنى: أنَّ المنافقين ويهود بني النضير يخافون من المؤمنين أشدَّ الخوف، بينما هم لا يخافون الله تعالى، فإنهم لو خافوا الله تعالى لآمنوا به وبرسوله ﷺ.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾يقول تعالى ذكره: هذه الرهبة التي لكم في صدور هؤلاء اليهود التي هي أشدّ من رهبتهم من الله من أجل أنهم قوم لا يفقهون، قدر عظمة الله، فهم لذلك يستخفُّون بمعاصيه، ولا يرهبون عقابه قدر رهبته منكم(١).

(١) جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٢٩١).

المطلب الثاني: طريقة قتالهم للمؤمنين:

وقوله: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾

وهنا وصف لقتالهم الناتج عن شدَّة خوفهم، فهم لا يقاتلون المؤمنين مبارزة، إنما لهم طريقتان في القتال:

الطريقة الأولى: أن يجتمعوا في قرى محصنة بالحصون المنيعة (لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إلا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ)

الطريقة الثانية: من خلف الحيطان (أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ).

المطلب الثالث: حقيقة العلاقة بين اليهود والمنافقين:

وقوله: ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ يبيَّن الله تعالى لعباده المؤمنين أنَّ عداوة المنافقين مع هؤلاء الكفار من اليهود شديدة. وكذلك عداوة اليهود بعضهم ببعض.

﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ يعني المنافقين وأهل الكتاب، يقول: تظنهم مؤتلفين مجتمعة كلمتهم، لكن الحقيقة التي يعلمها الله تعالى عنهم وأخبر بها هي أنَّ قلوبهم مختلفة لمعاداة بعضهم بعضًا.

عن قتادة قال: "تجد أهل الباطل مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفة أعمالهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحقّ"[1].

وتؤكد الآية على اختلاف أهل الباطل وتفرقهم في آرائهم وأهوائهم وأعمالهم، بينما يجتمعون على عداوة أهل الحق. كما يشير إلى أن المنافقين يختلفون في دينهم عن يهود بني النضير، وأن هذا يهدف إلى تقوية المؤمنين عليهم.

(١) جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٢٩٢)، زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٢٦١)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٦٢).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ يقول جلّ ثناؤه: هذا الذي وصفت لكم من أمر هؤلاء اليهود والمنافقين، وذلك تشتيت أهوائهم، ومعاداة بعضهم بعضًا من أجل أنهم قوم لا يعقلون ما فيه الحظّ لهم مما فيه عليهم البخس والنقص(١).

المبحث التاسع: ضرب المثل في مصير المنافقين وبني النضير بمن قبلهم، الآية (١٥).

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[الحشر: ١٥].

ضرب الله مثلا في هذه الآية، وأخبر أنَّ مصير هؤلاء المنافقين ويهود بني النضير فيما سينزله من عقابه مثل عقوبة من كان قبلهم، من مكذبي رسله (٢).

وقد اختلف المفسرون في تحديد المقصود ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ على عدة أقوال(٣):

القول الأول: بنو قينقاع، وهم يهود نقضوا عهد النبي صلى الله عليه وسلم فحاصرهم ثم أجلاهم.

قال ابن عباسﷺ: كانوا بنو قينقاع يهودا، وكانوا وادعوا رسول الله ﷺ، ثم غدروا، فحصرهم، ثم نزلوا على حكمه أن له أموالهم، ولهم النساء والذُّرِّية.

القول الثاني: مشركو قريش الذين هُزموا في غزوة بدر.

والمعنى: مَثَلُ هؤلاء اليهود كمثلِ المشركين الذين كانوا من قبلهم قريباً، وذلك لقرب غزوة بني النضير من غزاة بدر.

(١) جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٢٩٣)، تفسير القرطبي (٣٥/١٨).

(٢) جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٢٩٣).

(٣) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٢٦١)، تفسير القرطبي (٣٦/١٨).

القول الثالث: بنو قريظة.

فالمعنى: مَثَلُ بني النضير كبني قريظة ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ بأن قُتلت مقاتلتهم، وسُبِيَتْ ذراريهم، وهؤلاء أُجلوا عن ديارهم فذاقوا وبال أمرهم وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ في الآخرة.

القول الراجح:

هو الجمع بين الأقوال، قال الطبري: "وأولى الأقوال بالصواب إن يقال: إن الله عزّ وجلّ مثل هؤلاء الكفار من أهل الكتاب مما هو مذيقهم من نكاله بالذين من قبلهم من مكذّبي رسوله ﷺ، الذين أهلكهم بسخطه، وأمر بني قينقاع ووقعة بدر، كانا قبل، جلاء بني النضير، وكلّ أولئك قد ذاقوا وبال أمرهم، ولم يخصص الله عز وجلّ منهم بعضًا في تمثيل هؤلاء بهم دون بعض، وكلّ ذائق وبال أمره، فمن قربت مدته منهم قبلهم، فهم ممثلون بهم فيما عُنُوا به من المثل"[1].

وقوله: ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ يقول: نالهم عقاب الله على كفرهم به.

وقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول: ولهم في الآخرة مع ما نالهم في الدنيا من الخزي عذاب أليم، يعني: موجع.

وقد يصح أنْ يُراد كلُّ من كان قبلهم من الأمم التي كذَبت بالرسل عليهم السلام، فعاقبها الله تعالى على ذلك، فأهلكهم في الدنيا، ولهم العذاب الأليم في الآخرة.

(١) جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٢٩٤).

المبحث العاشر: ضرب المثل في موقف المنافقين مع بني النضير، بموقف الشيطان مع الكافر، وبيان مصيرهم، الآيات (١٦-١٧).

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧ ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

تبين هاتان الآيتان المثل الذي ضربه الله تعالى في خداع المنافقين ليهود بني النضير بخداع الشيطان للكافر، ثم بيَّن عاقبة هذا الخداع، وسنذكر ذلك في المطالب التالية:

المطلب الأول: بيان خداع المنافقين وتخليهم عن حلفائهم كما يفعل الشيطان:

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: مثل هؤلاء المنافقين الذين وعدوا اليهود من النضير، النصرة إن قوتلوا، أو الخروج معهم إن أُخرجوا، ومثل بني النضير في غرورهم إياهم، بإخلافهم الوعد، وإسلامهم إياهم عند شدّة حاجتهم إليهم، وإلى نُصرتهم إياهم، كمثل الشيطان الذي غرّ إنْسانًا، ووعده على اتباعه وكفره بالله، النصرة عند الحاجة إليه، فكفر بالله واتبعه وأطاعه، فلما احتاج إلى نُصرته أسلمه وتبرأ منه، وقال له: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ في نُصرتك"[1].

(١) جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٢٩٤)، زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٢٦٢).

المطلب الثاني: اختلاف المفسرين في المراد بالإنسان في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ ﴾:

اختلف المفسرون في لمراد بالإنسان في هذه الآية إلى أقوال[1]:

١- أن هذا المثل عام لكل إنسان يطيع الشيطان في الكفر، حيث يزين له المعصية ثم يتبرأ منه يوم القيامة.

٢- أنَّ المقصود بالإنسان في هذه الآية هو إنسان بعينه، وهو الراهب الذي اعتدى على المرأة التي كانت ترعى الغنم،

٣- أنَّ المقصود بالإنسان في هذه الآية هو إنسان بعينه، وهو العابد برصيصا، وضعف قصته ابن عطية[2].

٤- أنَّ المقصود بالإنسان في هذه الآية هم: (كفار قريش في غزوة بدر) حيث قال لهم إبليس: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم. كما ورد في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾[الأنفال: ٤٨].

---

(١) ينظر: جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٢٩٥-٢٩٧)، زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٢٦٢-٢٦٣)، تفسير القرطبي (١٨/٤١-٤٢)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٦٢).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٩٠).

المطلب الثالث: حقيقة خوف الشيطان من الله تعالى الوارد في الآية[١]:

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

للعلماء في حقيقة خوف الشيطان الوارد في الآية عدة أقوال:

القول الأول: هو خوف حقيقي بالمعنى الذي يليق بطبيعته. لكنه ليس خوفًا يؤدي إلى الإيمان أو الطاعة أو فعل الخير، بل هو خوف من قدرة الله وعقابه. فهو خوف قهري وغريزي من قوة الله القاهرة وعذابه الذي يستحقه على كفره وعصيانه وإغوائه للبشر. إنه يعلم تمام العلم قدرة الله عليه وعلى أمثاله من الجن، ويخشى العذاب الذي وعد الله به الكافرين.

القول الثاني: أنَّ خوفه ليس على الحقيقة، إنما هو على وجه التبرؤ من الإنسان الذي أغواه، فهو تأكيد لقوله تعالى: ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ﴾ ، فإنه لو كان يخاف الله حقيقة لأطاعه، ولكن هذا من باب الحجج الواهية، والتي تزيد من حسرة الإنسان الذي اتبعه. وفيه إظهار النفاق أو الكذب. فهو يقول ذلك ليخلي مسؤوليته أمام هذا الإنسان يوم القيامة، أو ليظهر له أنه لم يكن صادقًا في وعده بالنصرة بعد الكفر، وإظهار عجزه عن دفعه للعذاب.

القول الراجح:

القول الأول، وهو أنَّ خوفه حقيقي بالمعنى الذي يليق بطبيعته، وأنَّ القول الثاني يتضمن اعترافًا ضمنيًّا بقوة الله والخوف من عقابه، وذلك الخوف هو خوف من قدرة الله وعقابه، خوف من السلطان والقهر والعذاب الذي ينتظره، لكنه ليس خوفًا يؤدي إلى الإيمان أو الطاعة.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٤١/١٨)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٩٠)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٦٢).

وتظهر الآية عجز الشيطان عن دفع عذاب الله عن نفسه وعن أتباعه. فهو يعترف بقوة الله التي لا يستطيع مقاومتها.

وتصور تناقضًا عجيبًا: شيطان يأمر بالكفر ثم يعلن خوفه من الله، وهذا يدل على علمه بالحق وعاقبة الباطل، ولكنه يستمر في ضلاله، إنه يعرف الحق، ولكنه يجحده استكبارًا وعنادًا، ولا يحجزه خوفه عن سوء يوقع فيه ابن آدم من أول إلا آخر. والله تعالى أعلم.

المطلب الرابع: عاقبة المنافقين ويهود بني النضير، وعاقبة الشيطان والكافر:

﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الحشر: ١٧].

يقول تعالى ذكره: فكان عُقبى أمر الشيطان والإنسان الذي أطاعه، فكفر بالله أنهما خالدان في النار ماكثان فيها أبدًا.

والتثنية ظاهرة فيمن جعل الآية مخصوصة في الراهب والشيطان.

ومن جعلها في الجنس فالمعنى وكان عاقبة الفريقين أو الصنفين [١].

﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يقول: وذلك عقاب اليهود من النضير والمنافقين الذين وعدوهم النصرة، وكلُّ كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به أنهم في النار مخلَّدون[٢].

(١) تفسير القرطبي (١٨/٤١-٤٢)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٦٢).

(٢) جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٢٩٧).

المبحث الحادي عشر: الأمر بتقوى الله تعالى والنهي عن الإعراض عن الدين وعاقبة الفريقين الآيات (١٨-٢٠) [(١)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ ﴾ [الحشر: ١٨-٢٠].

تتضمن هذه الآيات الثلاث وعظًا وتذكيرًا للمؤمنين بأهمية التقوى ومحاسبة النفس والاستعداد للآخرة، وتحذيرًا من نسيان الله الذي يؤدي إلى الخسران، وبشارة لأهل الجنة بالفوز العظيم. وسنتحدث عن ذلك من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: الأمر بتقوى الله تعالى ومحاسبة النفس:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

في هذه الآية نداء للمؤمنين الذين صدّقوا الله ووحدوه بضرورة تقوى الله، أي خشيته وطاعته والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه. وتكرر الأمر بالتقوى مرتين، مما يؤكد على أهميته.

﴿ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ أمر لكل نفسٍ مؤمنة أن تتفكر وتتدبر في الأعمال التي قدمتها في حياتها الدنيا ليوم القيامة، أمن الصالحات التي تنجيه أم من السيئات التي توبقه؟

(١) ينظر: جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٢٩٩)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٩١)، زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٢٦٣)، تفسير القرطبي (٤٣/١٨)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٦٢).

وهذا يشمل محاسبة النفس ومراجعة الأعمال قبل فوات الأوان، لتكف عن السيئات وتزيد من الحسنات، وإنما عبّر عن يوم القيامة بغد تقريبا له، لأن كل ما هو آت قريب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: تعليل للأمر بالتقوى والمحاسبة، فالله عليم بكل ما يفعله الإنسان، وسيجازيه عليه.

وهي آية وعظ وتذكير وتقريب للآخرة، وتحذير ممن لا تخفى عليه خافية.

المطلب الثاني: النهي عن الإعراض عن الدين، وبيان عاقبته:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

نهى الله تعالى في هذه الآية عباده المؤمنين عن التشبه بالذين نسوا الله، وهم الكفار، فقد تركوا ذكر الله وطاعته وأعرضوا عن دين الله، حتى كانوا كالناسين. وفي الآية إشارة إلى بني قريظة، والنضير، وبني قينقاع.

ثم بيَّن الله تعالى عقوبة هؤلاء الذين نسوا الله تعالى، وعبر عما حفهم به من الضلالة بقوله: ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ سمى عقوبتهم باسم ذنبهم بوجه ما.

وفي معنى نسيانهم أنفسهم عدة أقوال:

القول الأول: عاقبهم الله بأن أنساهم مصالح أنفسهم الحقيقية في الآخرة، فلم يعملوا لها ولم يستعدوا للقاء الله.

القول الثاني: أنساهم عيوب أنفسهم، فلم يسعوا لإصلاحها.

القول الثالث: أنساهم حظوظ أنفسهم، فلم يعملوا بالطاعة، ولم يقدِّموا خيراً.

والأقوال الثلاثة محتملة ومتقاربة المعنى، فهذه الآية تحذر المؤمنين من نسيان الله والإعراض عن ذكره، لأنَّ ذلك يؤدي إلى نسيانهم لمصالح أنفسهم وعاقبتهم أن يكونوا من الفاسقين.

ثم وصف الله تعالى الذين نسوا الله تعالى بأنَّهم الفاسقون، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.والفسق في اللغة هو: الخروج من الشيء. فوصفت الآية هؤلاء الذين نسوا الله بأنهم الخارجون عن طاعة الله وعن طريق الحق.

المطلب الثالث: البشارة لأهل الجنة بالفوز العظيم:

قال الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠].

هذه الآية تقرر بشكل قاطع عدم تساوي مصير أهل النار وأهل الجنة، وتعلن أن الفائزين الحقيقيين هم أهل الجنة الذين نالوا رضوان الله.

قال الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ ﴾ أي: في الفضل والرتبة والمكانة، وفيه بيان لعدم التساوي والمقارنة بين أهل النار الذين استحقوا العذاب بكفرهم وعصيانهم، وأهل الجنة الذين استحقوا النعيم بإيمانهم وطاعتهم.

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ أي: المقربون المكرمون، وقيل الناجون من النار.

وفيه تأكيد على أنَّ أهل الجنة هم الظافرون، والناجون الذين حققوا الفوز الحقيقي، برضا الله، ودخول الجنة والنجاة من النار.

أسأل الله تعالى أن يجعلني ووالديَّ وزوجي وذريتي وأهلي، وكلَّ من يقرأ هذا البحث من الفائزين برضوان الله تعالى، وبجنات النعيم.

المبحث الثاني عشر: بيان عظمة القرآن، والحث على تدبره، والغاية من ضرب الأمثال في القرآن ، الآية (٢١):

قال الله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر: ٢١].

وفي هذا المبحث ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: بيان عظمة القرآن:

ضرب الله تعالى مثلا بيَّن فيه عظمة القرآن، وذلك المثل هو: قول الله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ ﴾

معنى «الخاشع» : المتطأطئ الخاضع، و «المتصدِّع» : المتشقِّق.

وقد ورد في تفسير هذا المثل ودلالته عدة أقوال [١]:

القول الأول: فيه توبيخ للإنسان: أنَّ في الآية توبيخ لابن آدم على قسوة قلبه، وعدم خشوعه، وتأثره بالقرآن، مع فهمه وعقله، مقارنة بالجبل الذي لو فهمه لتأثر به بشدة.

القول الثاني: فيه بيان عظمة القرآن: يوضح الله تعالى عظمة شأن القرآن وتأثيره القوي، وأنه لو جعل في الجبل تمييزًا وفهمًا، لتشقّق خوفًا من عدم أداء حق الله في تعظيمه.

القول الثالث: فيه مثل للكفار: قيل إن هذا المثل ضُرب للكفار الذين لا يرغبون في وعد الله ولا يخافون من وعيده، مع أنهم مقهورون بإعجاز القرآن.

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٢٦٤)، تفسير القرطبي (٤٤/١٨)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٦٣).

القول الرابع: هو امتنان للنبي ﷺ: ذكر قول بأنَّ الخطاب للنبي ﷺ، وأنَّ الله ثبّته لتحمل هذا القرآن الذي لو نزل على جبل لتصدع، فيكون ذلك منَّة من الله عليه.

القول الخامس: هو خطاب للأمة: قيل إنه خطاب للأمة بأن الله لو أنذر الجبال بهذا القرآن لتصدعت، والإنسان أقل قوة وأكثر ثباتًا، فهو قادر على القيام بحقه إن أطاع وعلى رده إن عصى لأنه موعود بالثواب ومزجور بالعقاب.

المطلب الثاني: الحث على تدبر القرآن:

وفي الآية حث على تأمل مواعظ القرآن، وأنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي: متشققة من خشية الله.

المطلب الثالث: الفائدة من ضرب الأمثال في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بيَّن الله تعالى أن الغاية من ضرب الأمثال في القرآن هو التفكر في هذه الأمثال، وفهمها وتدبرها، وأخذ العظة والعبرة. وضرب الله تعالى هذا المثل ليتفكر فيه العاقل ويخشع ويلين قلبه(١).

ولفظ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ﴾ يفيد الجمع، وفيه إشارة إلى الأمثال التي وردت في هذه السورة.

وهي مثلان صريحان، في الآيتين: (١٦) و (٢١)، كما أنه يوجد مثلا ضمنيا في الآية (١٥).

والآية تفيد العموم في الغاية من ضرب الأمثال في القرآن كله، وهو التفكر الموصل إلى أخذ الموعظة والعبرة. والله أعلم.

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٩١).

المبحث الثالث عشر: دلالات أسماء الله الحسنى وصفاته العليا التي ختمت به السورة، الآيات (٢٢-٢٤)[(١)].

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

تعتبر الآيات (٢٢-٢٤) من سورة الحشر بمثابة الخاتمة والتتويج لما ورد في السورة قبلها، حيث تأتي لـ بيان عظمة الله وجلاله بعد ذكر أحداث وقصص: بعد أن ذكرت السورة قصة بني النضير، وموقف المنافقين، وأشارت إلى أهمية التقوى ومحاسبة النفس، تأتي هذه الآيات لتذكير المؤمنين بعظمة من يتقونه ويخشونه، وبيان صفاته العليا وأسمائه الحسنى التي بها يعرف المؤمن ربه، فتكون سببا في حصول الخشوع والخشية.

ويمكن الحديث عن ذلك في عدة مطالب، وهي:

المطلب الأول: تأكيد وحدانية الله تعالى، ونفي الشرك، وعلمه الشامل ورحمته الواسعة:

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢].

(١) لمزيد من المعاني ودلالات الأسماء والصفات ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٩٢)، زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٢٦٤-٢٦٥)، تفسير القرطبي (١٨/٤٥-٤٩)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٦٣).

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ج: فيه بيان وحدانية الله المطلقة، وأنه لا معبود بحق سواه. هذا هو أساس التوحيد والإيمان. وقد تكرر لفظ الجلالة في الآيات الثلاث، بقوله: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ﴾ ، وفيه تأكيد عظمته وربوبيّته سبحانه وتعالى.

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾: فيه بيان لسعة علم الله الشامل لكل ما غاب عن الخلق وما هو ظاهر لهم. فهو يعلم السر والعلن، الماضي والحاضر والمستقبل.

﴿ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾: فيه إخبار عن اتساع رحمته التي وسعت كل شيء، ورحمته الخاصة بالمؤمنين. هذان الاسمان يدلان على عظيم إحسانه وإنعامه على خلقه.

المطلب الثاني: تعداد صفات الكمال والجلال:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر: ٢٣].

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾: فيه تأكيد على وحدانية الله المطلقة، وأنه لا معبود بحق سواه.

وهذه الآية تذكر تسعة من أسماء الله الحسنى، وكل اسم يدل على صفة من صفات كماله وجلاله وتدعونا إلى معرفته والاعتراف بعظمته، ويعزز الخشية والتقوى التي دعت إليها الآيات السابقة، وهي:

﴿ **الْمَلِكُ** ﴾: المتصرف في ملكه كيف يشاء، له السلطان المطلق.

﴿ **الْقُدُّوسُ** ﴾: المنزه عن كل نقص وعيب، الطاهر من كل سوء.

﴿ **السَّلَامُ** ﴾: السالم من كل آفة، والذي يسلم من لجأ إليه، والمُسَلِّم لعباده المؤمنين.

﴿ **الْمُؤْمِنُ** ﴾: المصدق لرسله وكتبه، والمؤمن لعباده من عذابه.

﴿ **الْمُهَيْمِنُ** ﴾: الرقيب الحافظ الشاهد على خلقه، القائم بأمورهم.

﴿ **الْعَزِيزُ** ﴾: القوي الغالب الذي لا يغلبه شيء، وله العزة المطلقة.

﴿ **الْجَبَّارُ** ﴾: العظيم القاهر الذي يخضع له كل شيء، والمصلح للأمور، الذي لا يدانيه شيء ولا يلحق رتبه.

﴿ **الْمُتَكَبِّرُ** ﴾: المتعالي عن صفات المخلوقين، المستحق للكبرياء والعظمة.

وختمت الآية بالتنزيه لله تعالى، والتقديس له عن كل ما يشركه به المشركون من الأنداد والأوثان.

فقال تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾: نزه الله تعالى نفسه عن إشراك الكفار به الأصنام التي ليس لها شيء من هذه الصفات، وهذا يتناسب مع سياق السورة الذي تناول مواقف أهل الكتاب والمنافقين الذين انحرفوا عن التوحيد.

المطلب الثالث: بيان أسماء الله المتعلقة بخلقه وإبداعه، وإثبات الأسماء الحسنى له:

قال الله تعالى: ﴿ **هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** ﴾ [الحشر: ٢٤].

هذه الآية تذكر ثلاثة أخرى من أسماء الله الحسنى، وهي متعلقة بخلقه وإبداعه:

﴿ **الْخَالِقُ** ﴾: الموجِد للأشياء من العدم، المقدر لها.

﴿ **الْبَارِئُ** ﴾: المنفذ لما قدره، والموجد للأشياء على غير مثال سابق.

﴿ **الْمُصَوِّرُ** ﴾: الذي شكَّل المخلوقات، وأعطاها صورها، وهيئاتها المختلفة.

﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: بيَّن الله تعالى أنَّ له الأسماء الحسنى الدالة على كمال صفاته وجلاله.

أي: ذات الحسن في معانيها القائمة بذاته لا إله إلا هو، وقد حثَّ على تعلمها وإحصائها، رسول الله ﷺ بقوله: (إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً إلَّا واحِدًا، مَن أحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ)(١).

وهناك اختلاف بين العلماء في تحديد هذه التسعة والتسعين اسمًا. فلم يرد في الأحاديث الصحيحة سرد لهذه الأسماء بالتحديد. وقد اجتهد بعض العلماء في جمعها من القرآن والسنة، ولكن لم يثبت في ذلك حديث صحيح متفق عليه.

المطلب الرابع: بيان شمولية التسبيح: تختتم الآيات ببيان أن كل ما في السماوات والأرض يسبح لله، قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحشر: ٢٤].

وهذا يربط بداية السورة التي استفتحت بتسبيح الله تعالى، ويؤكد على عظمته وسلطانه على كل شيء.

المطلب الخامس: التأكيد على العزة والحكمة: تختتم الآيات باسمين عظيمين من أسماء الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: هو القوي الغالب في ملكه، الذي لا يُغلب، والقاهر الذي لا يُقهر.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: الحكيم في أفعاله وتدبيره وشرعه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثُّنْيَا في الإقرار، ح (٢٧٣٦)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، ح (٢٦٧٧) باختلاف يسير .

وهذا يشير إلى أنَّ كل أفعاله سبحانه وتعالى، وتدبيره للخلق، مبنيٌّ على العزة المطلقة والحكمة البالغة، وهذا يعطي المؤمن طمأنينة في مواجهة الأحداث التي ذكرت في السورة.

المطلب السادس: ارتباط آخر السورة بأولها، وبموضوعها الرئيس، وهو إجلاء بني النضير، وما يتعلق به من أحداث وأحكام.

فقد ختمت السورة بهذه الآيات العظيمة (٢٢-٢٤) لتكون بمثابة خلاصة مركزة ومؤثرة لصفات الله العظيمة وجلاله، مما يعمق الإيمان في قلوب المؤمنين، ويدعوهم إلى المزيد من التقوى والخشية، بعد أن استمعوا إلى القصص والعبر التي وردت في السورة. إنها بمثابة تعريف شامل وعميق بالله الذي يجب أن يكون محور حياة المؤمن.

الخاتمـــــــة

الحمد لله رب العلمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد،

فقد كان هذا البحث بعنوان : **تفسير سورة الحشر، دراسة موضوعية**، وقد خرجت بنتائج وتوصيات عديدة،

أما النتائج فمن أبرزها ما يأتي:

١. جواز تسمية السورة باسمين هما: سورة الحشر، وسورة بنو النضير.
٢. وجوب أخذ العظة والعبرة من حادثة بني النضير.
٣. وجوب اتباع الرسولﷺ في كل ما أمر، والابتعاد عما نهى عنه.
٤. التعرف على أحكام الفيء.
٥. رفعة مكانة المهاجرين والأنصار، ومن يتبعهم بإحسان إلى يوم الدين جعلنا الله تعالى منهم.
٦. أهمية الدعاء الوارد في هذه السورة العظيمة، وهو: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠]، وينبغي لكل مؤمن ومؤمنة أن يحرصوا على هذا الدعاء، ويعلموا أولادهم منذ الصغر قراءة هذا الدعاء، فهو دعاء عظيم وله دور كبير في تحقيق سلامة الصدر، وتهذيب النفس ونشر المحبة بين الناس، وتطهير القلوب من الأحقاد والضغائن.
٧. أهمية خواتيم سورة الحشر تظهر بما فيها من أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العليا.
٨. الموضوع الرئيس للسورة هو: إجلاء بني النضير، وما يتعلق به من أحداث وأحكام، ومن يتدبر الآيات يجد ارتباط الآيات بعضها ببعض من أول السورة لآخرها، وقد جاءت خاتمة الآية الأخيرة في السورة مطابقة لخاتمة الآية

الأولى من السورة، وهما: اسمان عظيمان (العزيز الحكيم)، مما يؤكد على أنَّ الله تعالى عالب على أمره، ولا يعجزه شيء، وأنَّه حكيم في إجلاء بني النضير، وفي توزيع الفيء، وفي إحكام الآيات العظيمة وضرب الأمثال في السورة.

٩. بدأت السورة بالتسبيح بصيغة الماضي، وانتهت بالتسبيح بصيغة المضارع، للدلالة على استمرار التسبيح لله من جميع الخلائق، سبحانه وتعالى، وفيه دلالة على أهمية التسبيح.

وأما التوصيات فأهمها:

أن تكتب بحوث متعددة لدراسة السور الأخرى من القرآن، ويكون تفسيرها تفسيراً مقارناً يبرز مدى اهتمام المفسرين بكتاب الله تعالى.

أسأل الله العلي القدير أن يتقبل منا أعمالنا ويتجاوز عن أخطائنا...آمين

فهرس المراجع والمصادر

الإتقان في علوم القرآن، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، (دار ابن كثير –دمشق، ط: الثانية، ١٤١٤هـ–١٩٩٣م).

أسد الغابة، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، (دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م).

أسرار ترتيب القرآن، تأليف: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، (دار الاعتصام ، القاهرة).

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، (الطبعة: بدون، مصر ، مطابع المدني بمصر).

البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (دار المعرفة، بيروت، ط: ١٣٩١).

البيان في عدّ آي القرآن، تأليف: أبو عمرو عثمان بن سعيد الأموي الداني، تحقيق: غانم قدوري الحمد (مركز المخطوطات والتراث ، الكويت ، ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م، الطبعة: الأولى).

التحرير والتنوير، للأستاذ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، (تونس، دار سحنون ، ط: بدون).

تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق ١) د.زكريا عبد المجيد النوقي ٢) د.أحمد النجولي الجمل. (دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ –٢٠٠١م).

تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (دار ابن حزم – بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م).

التوقيف على مهمات التعاريف ، لمحمد عبدالرؤوف المناوي، تحقيق: الدكتور: محمد رضوان الداية، (دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر ،

دمشق، ط: الأولى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م).
الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبداله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: الثالثة)
الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة للقاضي زكريا الأنصاري (ت٩٢٦هـ)، تحقيق: د. مازن المبارك (دار الفكر المعاصر- بيروت، ط: الأولى،١٤١١ هـ-١٩٩١م).
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، البغدادي (بيروت، دار الكتب العلمية ، ط: بدون، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م).
سنن الدارمي، لعبدالله بن عبد الرحمن أبي محمد الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، (دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، ١٤١٢هـ-٢٠٠٠).
السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبي محمد، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، (دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ).
الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، (دار الكتاب العربي).
صحيح ابن خزيمة، لمحمد بن إسحاق بن خزيمة أبي بكر السلمي النيسابوري، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي (المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠ - ١٩٧٠).
صحيح البخاري، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، (بيت الأفكار الدولية - الرياض، ط:الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م).
صحيح مسلم، لأبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، (بيت الأفكار الدولية - الرياض، ط:الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م)

الطبقات الكبرى، لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، (دار صادر ، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٦٨ م).

غريب الحديث، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي، تحقيق: د.عبدالمعطي أمين قلعجي، (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م).

فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني(ت٨٥٢هـ)، تحقيق: محب الدين الخطيب (المكتبة السلفية–القاهرة، ط:الثالثة، ١٤٠٧هـ).

القاموس المحيط، للعلامة: مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي (مؤسسة الرسالة–بيروت، ط: الثانية، ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م).

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ).

الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٢هـ–١٩٩٢م).

تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي، تحيقيق: د. بشار عواد معروف، (مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ – ١٩٨٠).

المستدرك على الصحيحين لمحمد بن عبدالله أبي عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م)

مسند الإمام أحمد بن حنبل، تأليف: أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني،

(مؤسسة قرطبة، مصر).
مسند الشاميين، لسليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي (دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ – ١٩٨٤،).
المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، للعلامة: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت٧٧٠هـ)، (المكتبة العلمية، بيروت، ط: بدون).
معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، (دار ابن حزم– بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م).
معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي أبي عبد الله، (دار الفكر، بيروت، ط: بدون)
المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، دار الدعوة.
معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، بيروت).
مفردات ألفاظ القرآن، للعلامة الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، (دار القلم–دمشق، والدار الشامية–بيروت، ط:الأولى، ١٤١٢هـ–١٩٩٢م).
الموطأ للإمام مالك بن أنس أبي عبدالله الأصبحي، رواية يَحيى بن يَحيى اللَّيْثيِّ الأَنْدَلُسِيِّ (تحقيق: الدكتور بشار معروف، دار الغرب الإسلامي ، بيروت).